القسم الثاني

في صحبة عبدالقادر الجزائري

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

القسم الثاني
في صحبة عبدالقادر الجزائري

١ - الزمـــان والمكـــان:

في سنة ١٨٤٠م، وفي قمة سنوات الصراع المرير بين جيوش فرنسا في الجزائر والمقاومة الوطنية بقيادة الأمير عبدالقادر، سئل أحد جنرالات فرنسا، الماريشال سوليت عن رأيه في عظماء الرجال في العالم في هذه الفترة من القرن التاسع عشر فقال[٨٧] :

« لا يوجد الآن في العالم أحد يستحق أن يُلقب بالأكبر إلا ثلاثة رجال هم : الأمير عبدالقادر الجزائري، ومحمد علي باشا، ومحمد شامل الداغستاني » . وعندما تأتي هذه الشهادة من عدو مباشر، فإنها تحمل إلى جانب دلالاتها العامة دلالات خاصة ناتجة عن التجربة والاحتكاك والاعتراف الذي لم يكن سهلاً بوجود نظام حضاري صلب في المجتمع العربي المسلم في الجزائر، وعلى رأسه واحد من أكبر رجال العالم في العصر، في الوقت الذي كان فيه الخطاب الرسمي الفرنسي، يُسمّي المجاهدين بالقراصنة، ويصفهم بالتمرد والعصيان، ويضع كل الخطط لإبادتهم إن استطاع .

كان ذلك التصريح بعد نحو ثماني سنوات من اصطدام فرنسا بما لم تكن تتوقعه من مقاومة لخططها، أَنْبَتَتها أرض كانت تبدو لها خالية من الكفايات والزعامات التي تجابه تخطيطًا بتخطيط، وعُدْوانًا بِرَدّ، وباطلاً بحق .

ولعل عنصر المفاجأة التي لم تكن متوقعة في إخراج شخصية قوية متكاملة على هذا النحو، تقود حركة أمة حية متحضرة وإن بدا لأعدائها غير ذلك، لعل ذلك العنصر هو الذي انتزع شهادة على ذلك النحو من القوة والصدق، وهو العنصر ذاته الذي

ينبغى أن نتنبه له ونحن نتأمل مكونات التميز في شخصية عبدالقادر الذى شكلت الظروف المحيطة به على رغم قسوتها عاملاً هاماً في إبراز قدراته الكامنة، وشكلت فرنسا بالنسبة إليه النقيض المضاد المتحدي والمحارب والمذعن والمستسلم والشاهد .

كانت فرنسا تتمتع في الجزائر بامتيازات تجارية خاصة منذ القرن السادس عشر[٨٨] وكانت لها مؤسسات تجارية في بعض المدن الساحلية، وتطورت العلاقات على نحو أفضل في عهد الثورة الفرنسية، وفي الوقت الذي كانت فيه حكومة الثورة تُحاصَر وتقاطع من كل دول أوربا، اعترفت بها الجزائر، وقدمت لها سنة ١٧٩٦م قرضًا بمليون فرنك دون فائدة على أساس أن تستعمل الجزائر هذا القرض في شراء الحبوب من فرنسا .

لكن المعاملة الحسنة شيء، والنوايا التوسعية شيء آخر، فَقَدْ رأت الدول الصناعية في أوربا أن عصر الصناعة بما يتطلبه من توزيع فائض الإنتاج وتوفير المواد الخام والأيدي العاملة، يستلزم احتلال بلاد (العالم الثالث)، وتم الاتفاق بينها على اقتسام الغنائم، وكانت إنجلترا تنافس فرنسا في النفوذ في الشمال الأفريقي، فوقعت فرنسا مع روسيا اتفاقية سرية سنة ١٨٠٨م، اتفقتا خلالها على أن يكون احتلال الجزائر من نصيب فرنسا[٨٩]، ولم يبق إلا تحيّن الفرصة والبحث عن الذريعة الشكلية .

وقد جاءت الفرصة نتيجة للمشاكل الداخلية أمام حكومة فرنسا في العقدين الثاني والثالث من القرن التاسع عشر، والبحث عن مغامرة خارجية تصرف الأنظار عما يجري في الداخل من ناحية، ومحاولة مغازلة البابوية بغزو بلد إسلامي، وإعادة الهيبة إلى جيوش فرنسا بعد هزائمها المتكررة من ناحية أخرى، ولم يبق إلا الذريعة، وقد وجدتها فرنسا في حكاية «المروحة» الشهيرة وتتلخص الحكاية في وجود دَيْن متنازع عليه للجزائر على فرنسا، كان لأحد التجار اليهود[٩٠] ويسمى (البكري) دَخلٌ في تعقيده، وماطلت فرنسا في الدين، ثم خفضته، وزاد هذا من حدة التوتر بين فرنسا والجزائر، وفي ٢٩ من أبريل سنة ١٨٢٧ م في مناسبة عيد الأضحى، حدث الحوار

المثير بين الداي [٩١] والقنصل الفرنسي ديفال، فقد استفسر الداي من القنصل عن سبب تجاهل الحكومة الفرنسية لرسائله المتعددة، ويبدو أن رد القنصل أثار الداي، وكانت بيده مروحة، فأشار بها إلى القنصل وهو يطرده، فَمَسَّت وجه القنصل[٩٢]، وهذا المسّ يتحول في روايات أخرى إلى ضربة أو ثلاث ضربات، وبعض الروايات تحول المروحة إلى سيف، ويشكك المؤرخون الفرنسيون اليوم في ذلك، فهم يرون أن القنصل ديفال فاسد الخلق كاذب، وكان يتاجر لحساب نفسه، وكان زير نساء عربيدًا، وكان يدعو الحكومة الفرنسية إلى غزو الجزائر، ويهون عليها الأمر.. وقد زعم كاذباً أن الداي في مطالبته إياه بسداد الأموال المستحقة.. ضربه على وجهه بمروحة كانت في يده، وقد أثبت الباحثون الفرنسيون أن ذلك كان غير صحيح، وأن القنصل الكاذب أراد أن ينهب أموال الديون، وكانت بدون أرباح، فافترى هذه الفرية، وزعم أن شرف فرنسا أهين، والطامعون في الجزائر في فرنسا صدقوا هذه الفرية وقرروا العدوان على الجزائر »[٩٣].

واتخذت فرنسا ذلك ذريعة للغزو، وبدأت في إعداد عدتها، وقد سخر الزعيم النمساوي ميترنخ فيما بعد من هذه الحجة - كما يقول المؤرخ الفرنسي شارل أندريه جوليان - وتعجب من أن تحرك فرنسا أربعين ألف جندي، وأن تصرف من خزانتها مائة وخمسين مليون فرنك من أجل ضربة مروحة[٩٤]، وعلى أي حال فقد تحركت فرنسا بقطع من أسطولها بقيادة كولي الذي حاصر الجزائر، وأرسل إنذارًا مهينًا يطلب فيه الاعتذار والتنازل عن الديون، ورفع العلم الفرنسي على جميع القلاع الجزائرية[٩٥]، وامتدت بحصارها إلى سنوات متتالية، ارتفعت خلالها نغمة العداء التي تمهد للغزو، وكانت نغمة مشبعة بروح صليبية، ففي خطاب العرش أعلن ملك فرنسا في مارس سنة ١٨٣٠م عن حملته التي يعدها للانتقام من الإهانة التي لحقت بالشرف الفرنسي، وأعلن أنها «حملة مسيحية على بلاد البرابرة المسلمين، وأنها في صالح كل العالم المسيحي»، وعندما ودع الملك حملة الغزو، ودعها بخطبة صليبية مثيرة جاء فيها: « إن العمل الذي تقوم به الحملة ترضية للشرف الفرنسي، سيكون بمساعدة العلي القدير لفائدة المسيحية كلها ».

وقد قال قسيس الحملة لقائدها في صلواته: «لقد فتحت باباً للمسيحية في أفريقيا» ووصف المؤرخ الفرنسي إدوارد ديو في أوائل القرن العشرين، احتلال الجزائر بأنه «أول إسفين دقّ في ظهر الإسلام»[٩٦].

وحشدت فرنسا واحدة من أكبر الحملات العسكرية في ذلك العصر، اشتركت فيها من قطع الأسطول ستمائة قطعة، وتجمع لها من الجنود زهاء أربعين ألف جندي، يساندهم نحو خمسة آلاف حصان ومائة قطع مدفع، ولم يكن على الطرف الآخر إلا قوة نظامية هزيلة قوامها نحو ستة آلاف إنكشاري من حماة الوالي العثماني (الداي)، ومجموعة متفرقة عند البايات ورجال القبائل[٩٧]، وكان الأسطول الجزائري الذي كانت شهرته بالسطوة والقرصنة موضع الأحاديث في أوربا، قد جُرَّ إلى حروب المساندة للدولة العثمانية مع الأسطول المصري، وتم التخلص منهما، ولا نريد أن نقف عند تفاصيل المعارك البحرية والبرية المعروفة والمُتوقَّعة أمام هذا الخلل الملحوظ في التوازن، ولكننا نقف قليلاً - في إطار التمهيد للظروف الزمانية والمكانية التي أحاطت بظهور عبدالقادر - أمام البيان الذي أذاعه بورمون القائد العام للحملة، على أهل الجزائر، عقب دخولها، وهو بيان كتب بلغة غريبة، لم يتدخل في صياغتها أو مراجعتها أحد ممن ينتمون إلى العروبة والإسلام، ولو كان من الخائنين، وهو يُذَكّر في لهجته وتوجهه بالبيان الذي كان قد وزع على أهل القاهرة، عقب دخول الحملة الفرنسية إليها في أواخر القرن الثامن عشر، يقول بورمون في بيانه[٩٨]:

« بسم الله المبدئ المعيد، وبه نستعين

يا أيها سادتي القضاة والأشراف وأكابر المشايخ والاختيارية، اقبلوا مني أكمل السلام، وأشمل أشواق قلبي بمزيد العزة والإكرام . .

اعلموا وتأكدوا يقيناً أني لست آتياً لمحاربتكم، فعليكم أن لا تزالوا آمنين ومطمئنين في أماكنكم، وتعملوا أشغالكم وكل ما لكم من الصنائع والحرف براحة

سر، ثم أني أريد أن أحقق لكم أنه ليس فينا من يريد يضركم لا في مالكم ولا في عيالكم، ومما أضمن لكم أن بلادكم وأراضيكم وبساتينكم وحوانيتكم، وكل ما هو لكم، صغيرًا كان أم كبيرًا، فيبقى على ما هو عليه. . ثم أننا نضمن لكم أيضًا ونعدكم وعداً حقيقياً مؤكداً غير متغير ولا متأول أن جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة ومعمورة على ما هي عليه الآن وأكثر، وأنه لا يتعرض لكم أحد في أمور دينكم وعبادتكم، إن حضورنا عندكم ليس هو لأجل محاربتكم وإنما قصدنا محاربة باشتكم الذي بدأ وأظهر علينا العداوة والبغضاء . ومن المعلوم أنه إنما يريد أن يجعلكم من الفقراء المنحوسين المبهدلين الخاسرين أكثر من المسخط عليهم، والدليل كوَّن أحسن العمارات والأراضي والخيل واللبس ومن أشبه كله من شأنه وحده.

فيا أيها أحبابنا سكان المغرب . . أسرعوا واغتنموا الفرصة ولا تعمى أبصاركم عما أشرقه الله عليكم من نور اليسر والخلاص !. . يا أيها أهل الإسلام، إن كلاً منا هذا صادر عن الحب الكامل وأنه مشتمل على الصلح والمودة، وأنكم إذا شيعتم مراسيلكم إلى أو دينا حينئذ نتكلم ونتفاهم . . . هذه نصيحة مني إليكم فلا تغفلوا عنها، واعلموا أن صلاحكم إنما في قبوله والعمل عليه، وأن هلاككم لا يرده عنكم أحد إن أعرضتم عما نصحتكم وأنذرتكم، واعلموا أن كلام سلطاننا المنصور المحفوظ من الله تعالى ، غير ممكن تغييره لأنه مُقَّدر والمقدر لابد أن يكون» .

إن هذا الوجه المعسول من بيان قائد الحملة يعكس الوجه الآخر من اللغة ذات النزعة الصليبية في خطاب العرش، وصلوات القساوسة، وتحريضات الخطباء والكتاب ضد المسلمين، وهذه الوعود بالحفاظ على الأرض والممتلكات والأمن والمعتقدات، هي التي اتخذت كل الإجراءات لتنفيذ ما يناقضها تمامًا[٩٩] .

ولم يجد الجيش الغازي مقاومة منظمة في البداية، فقد كان الداي غريبًا مهتماً بسلامته وسلامة الإنكشارية معه، ومن ثم فقد رضي بأول اتفاق يضمن له الرحيل مع جنوده في سلام[١٠٠]، وبدأ الناس يرون وعود فرنسا تتبخر أمام نزع الملكيات، وهدم

المباني، وإغراء من يتعاون معها في البدء، ثم معاقبته ونفيه من بعد ذلك، ولم يقاوم من البايات السابقين، إلا الحاج أحمد باي قسنطينة في الشرق الذي صمدت مدينته حتى سنة ١٨٣٨م، ثم انسحب بعد ذلك إلى الجنوب حتى سنة ١٨٤٨م، حيث اعتقل ونقل إلى الجزائر، وبها مات سنة ١٨٥٠م، وعلى الرغم من الفراغ الإداري والتنظيمي الذي تركه رحيل باي الجزائر، فإن المقاومة بدأت في التشكل ولو في صور سلبية، مثل الهجرة من المدن، والتعاون السري مع رجال المقاومة، وتهريب الأسلحة أو الاحتجاج والتظاهر، أما اليهود من سكان المدن فكان لهم موقف آخر، يقول الدكتور محمد خير فارس[١٠١] : « في مدينة الجزائر انضم اليهود وحدهم على الفور إلى المحتلّ، وأسهموا في نهب المدينة، وعرضوا خدماتهم على المحتل الذي قبلها، وعمل يعقوب بكري الذي عين رئيسًا للطائفة اليهودية، مستشارًا لبورمونت» .

إن هذه الشرائح كلها عندما يتم تأملها، نجد أنها تساعد على دفع المقاومة المرتقبة نحو الاتجاه الإسلامي، فإذا كان قواد الحملة يعلنون أنها صليبية ضد البرابرة المسلمين، وكان اليهود من سكان البلاد أول من يتعاون في نهب المدن وإذلال السكان، فلن يكون من التعصب عندئذ بحال، أن تتجه بذرة المقاومة التي تتشكل إلى علماء الإسلام[١٠٢] لكي تختار من أحدهم قائدًا لها وأميرًا لهم.

وبدأت المقاومة تتلمس طريقها للتنظيم، وتحدد الخيارات المتاحة أمامها، ففي شهر يوليو سنة ١٨٣٠م، « عقد رؤساء القبائل في منطقة الجزائر[١٠٣] مؤتمراً في برج مانتسيفو، وكان هدف المؤتمر تحديد موقف القبائل من الحرب أو السلم مع الفرنسيين، وكانت الرغبة في المقاومة ظاهرة، وقد تشجع المؤتمرون بهزيمة الفرنسيين في بليدة، وبما حدث في الجزائر من اعتداء، ونهب، ومصادرة للأملاك، وحرق الحصاد، وتدمير البيوت، والاعتداء على النساء والمساجد، وقرر المؤتمر المقاومة ورفض أي اتفاق مع العدو، وانتشر الرسل بين القبائل يحملون هذا القرار ويدعونها للقيام بعمل مشترك» .

وتمخضت مشاورات القبائل عن الانضمام إلى سلطان المغرب في بادئ الأمر، واستقبال واليه والخطبة له، وتم السير في هذا الطريق عدة خطوات، ورضي السلطان عبدالرحمن بن هشام بذلك، وأرسل ابن عمه علي بن سليمان أميرًا على البلاد، وسكن تلمسان، لكن فرنسا هددت سلطان المغرب فانسحب واليه من الجزائر ليعود الفراغ من جديد، وكانت هذه الخطوة قد اتخذت بعد اللجوء إلى الشيخ محيي الدين والد عبدالقادر، وعرض الإمارة عليه، فكان اعتذاره عن عدم قبول الإمارة وقبوله للجهاد، وإشارته بالتعاون مع سلطان المغرب، فلما فشل ذلك التخطيط، عاد زعماء القبائل من جديد لمقابلة الشيخ محيي الدين ودفعه نحو الإمارة، ويصف السيد محمد بن الأمير عبدالقادر مطالبتهم تلك وإصرارهم فيقول[١٠٤] : « اجتمع الأشراف والعلماء وأعيان القبائل من العرب والبربر، وقدموا على حضرة سيدي الجد، وألزموه أن يقبل بيعتهم على الإمارة لنفسه أو لولده، وحاجوه في ذلك بما أعجزه عن الاعتذار، فأمعن النظر في هذا الأمر، فرأى أن الاهتمام به واجب، وتعين عليه شرعاً أن يقوم به لأنه مسموع الكلمة نافذ الأمر، غير أنه لما كان عاجزًا عن القيام بأعبائه، ورأى أن ولده قد بلغ أشده، وأرهف حده، وترشح للإمارة، وتأهل لها . . . . وعلم أنه لا مندوحة له عن الإجابة أو القبول إما له أو لولده، فحينئذ استخار الله تعالى وقدم ولده للإمارة» .

وإذا كان حفيد الشيخ محيي الدين يكتفي بالإشارة إلى المحاجة والإلحاح اللذين أقنعا الشيخ في النهاية بأن يرشح ابنه للإمارة، فإن تشرشل الذى كتب سيرة الأمير عبدالقادر بعد أن استمع إلى تفاصيلها منه هو نفسه، يذكر أن زعماء القبائل في هذه الجلسة عندما اعتذر الشيخ عن عدم قبول الإمارة « هددوه بالقتل إن هو امتنع، فرضي على أن يتولاه ابنه عبدالقادر، فقبلوا بإمامته مسرورين »[١٠٥] .

ولم يكن عبدالقادر حاضرًا في ذلك المجلس، فقد كان وقتها يحارب الفرنسيين في موقع يقال له « حصن فيليب» فبعثوا إليه وبايعوه، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة .

وقبل عبدالقادر منصب الإمارة[١٠٦]، وقصد إلى المسجد الجامع حيث صلى بالناس، وخطبهم حاثاً إياهم على الطاعة والعمل بمقتضى الشرع الشريف، والاقتداء بالخلفاء الراشدين، ثم استقر عبدالقادر في مقر الإمارة بمعسكر، وبدأ خطواته بخطاب لجمع الكلمة، وجهه إلى جميع القبائل موضحًا نهجه وسياسته، ومما جاء فيه :

« وبعد فإن أهل معسكر . . ومن جاورهم واتحد بهم، قد أجمعوا على مبايعتي وبايعوني على أن أكون عليهم، وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر، وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله، وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم، كما أنني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، ورفع النزاع والخصام من بينهم، وتأمين السبل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة، وحماية البلاد من العدو، وإجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف.

فلذلك ندعوكم لتتحدوا وتتفقوا جميعًا، واعلموا أن غايتي القصوى، اتحاد الملة المحمدية، والقيام بالشعائر الأحمدية، وعلى الله الاتكال في ذلك كله، فاحضروا لدينا لتظهروا خضوعكم وتؤدوا بيعتكم، وفقكم الله وأرشدكم »[١٠٧] .

وهذه البداية الواعية القوية، تدل على أن الأمير كان مدركاً للمهام الملقاة على عاتقه في هذه المرحلة الحرجة، مخططاً لكيفية معالجتها وإدارتها وتوجيهها نحو هدف معين، يجتمع الشمل من حوله، وتتحد القوى في سبيل الوصول به إلى غايته، وذلك يدل على أنه لم يبدأ من فراغ، ولكنه بدأ من علم وتأمل وتجربة وخبرة من خلال رحلاته مع والده، وهو ما يمكن أن يزداد أمامنا وضوحًا، إذا وقفنا قبل الدخول في تفاصيل تجربة هذه الشخصية المتميزة في مرحلة الإمارة، أمام مرحلة التكوين والخبرة في مرحلة ما قبل الإمارة .

٢ - ما قبل الإمارة: مرحلة التكوين والخبرة النظرية:

المحيط الأسري والتعليمي والطبيعي الذي أحاط بعبد القادر منذ نشأته، ساعد منذ صباه المبكر على تشكيل منظومة القيم التي سوف يتمسك بها، ويدعو إليها، ويدافع عنها طوال حياته .

فى سنة ١٨٠٧ م - ١٢٢٢ هـ ولد في القيطنة الواقعة على وادي الحمام الجميل المحاط بالأشجار الباسقة والجبال الشاهقة والأجواء الواسعة[١٠٨]، وقرية القيطنة كان قد بناها جده، وحملت هذه التسمية إشارة إلى أنها ليست قرية مرتحلة، وإنما هي قاطنة مستقرة، تقع بالقرب من مزار يحمل اسم محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب[١٠٩] وهي صلة مكانية بآل البيت تؤكد صلة النسب التي كانت تعتز أسرة عبدالقادر بالتحلي بها، وامتداد حلقاتها حتى علي بن أبي طالب، فسلسلة عبدالقادر تبدأ عند مؤرخيه بالسيد حاج عبدالقادر بن محيي الدين بن المصطفى . . . وتمتد حتى تصل إلى الإمام موسى الجوني بن الإمام عبدالله المحض، بن الإمام الحسن المثنى بن الإمام الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب[١١٠] .

وكانت القيطنة قد تحولت إلى زاوية يقصدها طلاب العلم في عهد جده، وعلا شأنها في عهد أبيه الذي جاءه المريدون - كما يقول التهامي - «من جهة مراكش وسوس وشنقيط ومن نواحي برقة، بل كانت له تلاميذ بالإسكندرية»[١١١]، ويضاف إلى هؤلاء الطلاب القادمين من أرجاء المغرب وموريتانيا وليبيا ومصر، طلاب القرآن الكريم والعلم من تلاميذ البلاد الذين «لا يحصون كثرة، ولا يعدهم عاد، ولا يخلو موضع قراءتهم من خمسمائة إلى ستمائة بحيث لا يسمع المارُّ بها إلا دويّ القراءة في كل وقت مع تدوين العلم بأكثر أنواعه »[١١٢] .

في هذا المناخ نشأ عبدالقادر فتلقى القرآن وعلوم الدين واللغة، وكان والده أبرز معلميه في صباه « فهو الذي علم ابنه كل العلوم الإسلامية الموجودة في ذلك

الوقت بما في ذلك حفظ القرآن الكريم »[١١٣] لكن سلسلة شيوخه اتصلت بعد ذلك، فامتدت إلى وهران حيث تلقى علم النحو والمنطق عن السيد مصطفى بن الهاشمي والشيخ محمد بن انقريد ثم إلى القاهرة، حيث يذكر مؤرخوه[١١٤] أنه تلقى في الجامع الأزهر أثناء رحلته إلى المشرق مع والده عن علماء من أمثال شمس الدين اللقاني، وناصر الدين، والشيخ أحمد الأجهر، والشيخ عبدالرحمن الأجهر، وأهل القرافة الكبرى، كذلك أتيح له في هذه الرحلة أن يتتلمذ على الشيخ المحدث الإمام أبي أحمد عبدالرحمن الكزبري، والشيخ الإمام ضياء الدين النقشبندي[١١٥]، وقد برع في علوم اللغة والدين، وحفظ قدرًا كبيرًا من صحيح البخاري عن ظهر قلب، وكان يستقسم به، ويقرئه لمريده، ويجيزهم بقراءته حتى آخر حياته»[١١٦].

وهؤلاء الشيوخ يحملون في مجملهم خلاصة علوم اللغة والأدب والدين والتصوف التي يعتز بها التراث العربي الإسلامي، ويحمله علماؤه جيلاً بعد جيل بما يحيط بها من قيم سلوكية تتبدى عند دارسي التصوف المخلصين على نحو خاص، وقد أتيح لعبد القادر من خلال ذلك كله أن يجمع بين طرائق المعرفة وآداب السلوك، وهو جمع لا يتيسر كثيرًا لآحاد الناس، ولا لعامة العلماء والمتصوفين، لأننا قد نلتقي بعالم متبحر في فرع أو أكثر من فروع علوم اللغة أو الدين، لكنه ليس على نفس القدر من الاهتمام بالجوانب السلوكية والتطبيقية لها، وقد نجد متصوفاً يوجه مريديه إلى السلوك على طريقة معينة، لكنه ليس معْنياً بالتبحر في أصول المعرفة ووسائل تحصيلها، لكن عبدالقادر كان يأخذ من كل اتجاه بطرف، ويستعين به على تحقيق غايته التي تتضح أمام عينيه شيئًا فشيئًا.

وقد رُزق عبدالقادر إلى جانب ذلك موهبة بيانية ناصعة، ساعدت في الإفصاح عما يحمل من آراء ومشاعر، وفي التأثير في الجماعات المحيطة به، والتي سوف تتنوع وتتكاثر يوماً بعد يوم، وهي الموهبة التي ساعدته على أن يكون خطيبًا مؤثرًا، وكاتبًا موجهًا، وعالمًا معبرًا عن كثير من دقائق العلم وأسراره التي ما تزال تحتفظ بها مؤلفاته.

لكن قدرة البيان تلك اشتدت عنده فوصلت إلى مرحلة التعبير الشعري، والشعر كان من مواهب عبدالقادر دون شك، وقد غذاه في صباه بهذه المعرفة اللغوية الدقيقة، كما غذاه في فتوته وشبابه ورجولته بهذه المواقف والتجارب الشاقة التي حمل من خلالها قدر أمته في فترة دقيقة من الزمن، وغذاه أيضًا بهذه السياحة الروحية الصوفية التي أهلته على مستوى التصوف أن يكون من أقطابه المعدودين وشيوخه المعروفين، ومن أصحاب المؤلفات القيمة فيه، والتي كان يتقرب بعض الناس الصالحين خارج إطار عصره ومصره بطبعها على نفقتهم حتى يستفيد منها أهل العلم، كما حدث في كتابه «المواقف» الذي طبع في القاهرة سنة ١٩٢٥م بعد أكثر من أربعين عامًا على وفاة الأمير عبدالقادر، وجاءت على غلافه هذه العبارة الدالة: «طبع على نفقة السيدة نبيهة هانم . . حرم العالم النبيل محمود باشا الأرناؤدي تنفيذاً لوصيته وإحياء لعاطر ذكراه، وذلك بإهدائه مجاناً لحضرات العلماء بالمعاهد الدينية الإسلامية».

وإذا كانت هذه التجارب كلها قد غذَّت موهبة الشعر عنده بروافد قوية، فقد غذَّاه الشعر نفسه بمجمل الخلال والقيم التي توارثتها الحضارة العربية، وحفظتها في ديوان العرب جيلاً بعد جيل كما قال أبو تمام:

ولولا خلال سنَّها الشعر مادرى

بُناة العلا مِنْ أين تُؤتى المكارمُ

على أننا ونحن نتحدث عن شعر الأمير عبدالقادر، ينبغي أن لا نغفل عن أن الشعر فن لغوي عريق في العربية، وقد عرف موجات متلاحقة من المدِّ والجزر حسب العصور التي مرَّ بها، والأماكن التي كانت قريبة أو بعيدة من مراكز حركات البعث والتجديد، ومن الصعب أن نحمل الأشياء فوق ما تحتمل، فنطلب من عالم جليل وشاعر مثل رفاعة الطهطاوي مثلاً أن يجيء شعره في درجة شعر البحتري قبله أو شوقي بعده، وإنما يقاس إلى شعراء عصره وطرائق التعبير فيه.

ومن هذه الناحية فإن شعر الأمير عبدالقادر، كما يقول محقق ديوانه الدكتور ممدوح حقي يمثل «آخر حلقات الشعر المنحدر من القرون الوسطى بكل ما فيه من مزايا وعيوب، وهو إلى النظم أقرب منه إلى الشعر، غير أنه سجلٌ صادق لعصره، يحسن أن يُدْرس نموذجًا للأسلوب في زمنه، ونحن ممن لا ينكر تغير الأساليب، وتلون الألحان، بتغير الأيام، وتقلب الأزمان»[١١٧].

وهذا حكم موضوعي محايد، جاء من طول معايشته لشعر الأمير، ومن هنا فينبغي أن لا نفاجأ إذا وجدنا كثيرًا من ظواهر شعر العصور الوسطى تشيع في الديوان مثل: الضرائر الشعرية، والألغاز، والأحاجي، والكتابة على نسق النحاة والبلاغيين والعروضين، والتسامح في بعض التراكيب غير الصحيحة أو القليلة الاستعمال، ولكننا إلى جانب ذلك نجد أيضًا كثيرًا من الصور الجميلة الصادقة النابعة من نفس عايشت تجارب عميقة في حب الطبيعة والخيل، وعشق الجهاد، والتمتع بالحب والجمال، والأنس بصحبة الأصدقاء والإخوان، والشوق إلى الأهل عندما يغيبون، وتحميس الرجال عندما يَهِنون أو يَفْتُرون، والإحساس بمرارة البعد عن الوطن، أو بلذة القرب من الحضرات المتدرجة في مجالات التصوف، وكل تلك، مشاعر صادقة جميلة لا يستهان برصيدها عندما تضاف إلى ما أنتجه الشعر العربي من قبل ومن بعد، لكنها ينبغي كذلك أن تقرأ في إطار حيزها الزماني، وأن لا تظلم بالقياس على أشعار البحتري أو أبي فراس.

إن الشعر عند عبدالقادر هو الذي يطلعنا على هذا الحب الغريزي عنده لحياة البادية، وتفضيلها على حياة الحضر إذا كان لابد من المقارنة، وهو حب لا يتوقف فقط عند الإعجاب بمنظر طبيعي كما يبدو لسائح يزورها، ولكنه يمتد إلى تقديم نمط حضاري يرتبط بمجموعة من القيم النبيلة مثل: الشجاعة، والكرم، والفروسية، وحماية الجار والأسير، ويعتبر عبدالقادر في عيون الثقافة الغربية والفرنسية خاصة نموذجها الحي ومجسد قيمها التي اكتشفتها هذه الثقافة من خلاله[١١٨].

ولسوف تعينه هذه المحبة للبادية على كثير من الأمور في حربه وفي سلمه على النحو الذي سنرى بعض ملامحه خلال هذه الصحبة القصيرة له .

لكننا نرى صورة شعرية لمحبته للبادية التي نشأ بها في واحدة من قصائده التي تأتي على طريقته في محاجة الآخرين ، وكانوا هذه المرة من أمراء الفرنسيين الذين اختلفوا في المفاضلة بين البدو والحضر[١١٩] :

لو كنتَ تعلم ما في البدو تعذرني
لكنْ جهلتَ وكم في الجهل من ضررِ
أو كنتَ أصبحتَ في الصحراء مرتقباً
بساط رَمْل به الحصباءُ كالدررِ
أو جُلْتَ في روضة قد راق منظرُها
بكلّ لونٍ جميل شيّق عطرِ
رأيتَ في كلّ وجهٍ من بسائطها
سِرْباً من الوحش يرعى أطيب الشجرِ
فيالها وقفةً لم تُبْقِ منْ حَزنٍ
في قلب مُضْنًى ولا كَدّاً لذي ضجرِ
نباكر الصيد أحياناً فَنَبْغَتُهُ
فالصيدُ منا مدى الأوقات في ذُعرِ
فكم ظلمنا ظليماً في نعامتهِ
وإنْ يكن طائراً في الجو كالصَقرِ
يوم الرحيل إذا شُدّت هوادجنا
شقائق عمُّها مُزنٌ من المطرِ
فيها العذارى وفيها قد جَعَلن كُوًى
مُرقَّعاتٍ بأحداقٍ من الحُورِ

ونحن فوق جياد الخيل نركضُها
شَليلُها زينةُ الأكفالِ والخُصُرِ
نطاردُ الوحشَ والغزلان نلحقُها
على البعاد وما تنجو من الضُمُرِ
نروح للحيّ لَيْلاً بعدما نزلوا
منازلاً ما بها لطخٌ من الوَضَرِ
تُرابها المسك بل أنقى وجاد بها
صوبُ الغمائم بالآصال والبُكُرِ
نلقى الخيام وقد صُفَّتْ بها فَغدتْ
مثلَ السماء زَهَتْ بالأنجم الزُّهرِ
قال الأُلى قد مَضوا ، قولاً يُصدّقهُ
نَقْلٌ وعَقْل وما للحقّ من غِيَرِ :
«الحُسن يَظْهرُ في بيتين رَوْنَقُه
بيتٌ من الشِّعْرِ أو بيتٌ من الشُعَرِ»

وهذه أبيات صافية صفاء سماء البادية ، بسيطة بساطة أرضها ، تعكس كثيرًا من قيم الاعتزاز بالبادية السائدة في التراث العربي ، والتي دار حولها كثير من الشعر العذب من أمثال قصص الحب العذري التي تدور عادة بين الخيام أو يصطنع لها راويها ذلك المناخ إن افتقدته ، وقصص الصيد التي تشكل هذه البيئة مسرحها الطبيعي في مطاردة الغزلان والوحوش ، وقد رأينا من قبل مقاطع لأبي فراس في وصف رحلات الصيد ، تدور معها أبيات عبدالقادر في أفلاك متقاربة ، وتستقي من تراث مشترك وتجارب متماثلة ، ومنها مشاهد الرحيل للأحبة ، وقد شُدَّت الهوادجُ على ظهور النياق ، واختفت العذارى بداخلها ، لكنهن ينظرن بعيونهن الجميلة من فتحات الهودج الصغيرة (الكُوى) ، فكأن العيونَ رُقَعٌ تسد هذه الفتحات لكثرتها وتلهفها ، وتلك صورة جميلة

من عبدالقادر، وهي تذكر على نحو ما بصورة الوداع التي رسمها أبو فراس لبعض أهل بيته، وقد ذهبن إلى الحج، وبخاصة أن اليوم كان ماطراً في الصورتين، فيتولد الشعور بصدق الإحساس ودقة التصوير في المشهدين، أما الجياد التي يعشقها عبدالقادر والتي ظل إلى آخر عمره يحبها ويرعاها ويربت عليها، فقد بدت هنا ضامرة شأن الجياد الأصيلة، تطارد الوحوش والغزلان، وتلحقها على البعاد، ويتناثر الشليل (العرق) على أكفالها وخصورها فتزدان به، أما بيوت الخيام التي أحبها، فلسوف نرى كيف سيتخذ في ظلها أحكم القرارات، ويقود انطلاقاً منها أنجح المعارك، بل كيف سيصنع منها أول عاصمة متنقلة في التاريخ فيما نظن، في «الزاملة» مدينة الخيام التي ستدوخ الأعداء وهم يبحثون عن موقعها الذي يتغير من حين إلى آخر، وهو يحمل في داخله خمسين ألفاً من البشر، في سهولة ويسر، ويطيل أمد الحياة والمقاومة لمن عشقوا البادية وعرفوا أسرارها، فأعطتهم المزيد من الحماية والمتعة والرضا والجمال.

إذا كان الشعر موهبة فطرية، يصقلها العلم وتنميها التجربة، وقد أخذ عبدالقادر بنصيب طيب من العلم منذ صباه المبكر في القيطنة ووهران، وبما أتيح له من التجارب في رعاية والده، فإن « الرحلة» كانت تمثل في تكوين الشخصيات في التراث العربي الإسلامي عاملاً هاماً في توسيع مدارك الشخصية، وزيادة معارفها وإفادتها من تجارب الآخرين، وتزداد أهمية الرحلة عندما تبدو وكأنها رحلة لتعميق المعرفة بالذات من خلال رؤية ما تمر به الذوات المشابهة، التي تبدو وكأنها مماثلة ومغايرة في آن واحد، وتلك كانت حالة العالم الإسلامي في الربع الأول من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي قام فيها عبدالقادر برحلة استغرقت عامين مع أبيه مرًّا خلالها بالشمال الأفريقي ومصر والحجاز وسوريا والعراق، وكلها تابعة يومئذ للخلافة العثمانية المترهلة التي بدأت تشغل بكثير من الحروب الخارجية والفتن الداخلية، وتنشغل عن الأحداث في الأقاليم المختلفة، ويتنوع الولاة في طبائعهم وأجناسهم وأهدافهم، فيحكم كلٌّ ولايته بما يتحقق لديه من أهداف ومطامح، تتفاوت درجة سموها ودنوها من مكان إلى مكان.

قامت الرحلة في ربيع الأول سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ م) متجهة برًا إلى تونس مرورًا بقسنطينة، ثم تبعتها رحلة بحرية استغرقت خمسة عشر يومًا إلى الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة حيث حضرا بعض مجالس العلم في الجامع الأزهر، والتقيا بمشاهير العلماء والمتصوفة، ثم استقبل الشيخ محيي الدين وابنه عبدالقادر وحاشيته من قبل والي مصر محمد علي استقبالاً حافلاً، «وهنا رأى عبدالقادر الأمير محمد علي باشا لأول مرة، ونظر إليه بدقة وتأمل، ولم يدر أنه سيتبع يوماً خطاه، وينسج على منواله وقد أكرمهما محمد علي باشا، وأحلهما محلاً رفيعاً»[١٢٠]، وسوف نعود مرة أخرى للوقوف أمام هذا اللقاء بعد استكمال الملامح العامة للرحلة .

اتجهت الرحلة بعد ذلك إلى مكة لأداء مناسك الحج، ثم إلى المدينة لزيارة قبر الرسول، ثم إلى دمشق مع ركب الحجيج الشاميين، وفي شهور الإقامة في دمشق كان التعرف إلى العلماء وحضور مجالس المشاهير في المسجد الأموي والالتقاء بكبار المتصوفة، وقد قرأ خلال ذلك صحيح البخاري على الإمام المحدث عبدالرحمن الكزبري، والتقى عبد القادر بالعارف بالله الشيخ خالد النقشبندي السهروردي وكان يكثر التردد إليه، فسمع منه علوماً شتى في التوحيد والتصوف، ثم كانت الرحلة إلى بغداد للتعرف إلى طريقة سيدي عبد القادر الجيلاني، وهناك أخذ عبدالقادر خرقة الطريقة القادرية من يد الشيخ محمود القادري الكيلاني نقيب الأشراف وخليفة الجيلاني .

ثم كانت العودة للحج مرة ثانية عن طريق الشام، وبعد الحج كان المرور بالقاهرة مرة ثانية، وأقاما فيها فترة غير قصيرة، عاودا الاتصال بالعلم، وجمع أمهات الكتب، ورؤية تجربة محمد علي في محاولة تأسيس الدولة الحديثة في مصر، وهي التجربة التي سوف يتأثر بها عبدالقادر لاحقاً، وإن اختلفت طبيعة التجربة في البلدين باختلاف التحديات المثارة، والأهداف المرجوة، والعدو المناهض .

ثم كانت العودة إلى القيطنة في عام ١٢٤٣ هـ/ ١٨٢٧ م، بعد رحلة دامت عامين، ولا شك أن عبدالقادر تأثر بتجربة محمد علي في مصر، وكما يقول الدكتور صلاح العقاد[١٢١] فقد « شهد في مصر النهضة الحديثة والتطورات العصرية التي أدخلها إليه محمد علي باشا في جميع مرافق البلاد، فأدرك قيمة هذه الحضارة الحديثة، وارتسمت خطوطها العريضة في ذهنه، وهذا ما سيفعله عندما سيتولى إمارة البلاد في المرحلة الثانية من حياته إذ سيحاول أن يبني دولته على هذه الأسس نفسها» .

وهذا ما يؤكده باحثون آخرون، فالدكتور جلال يحيى يرى أن عبدالقادر «أُعجب بكل ما قام به محمد علي في مصر»[١٢٢]، والدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن يشير أثناء حديثه عن الرحلة إلى « أنه أعجب أثناء زيارته لمصر بالتنظيمات والإصلاحات التي أدخلها محمد علي للنهوض بمصر آنذاك »[١٢٣]، ويرى الدكتور شوقي عطا الله الجمل[١٢٤] أن تنفيذ الأفكار الإصلاحية في مصر على يد محمد علي كان أيسر من محاولة عبدالقادر تنفيذها فيما بعد في الجزائر، نظرًا للظروف المختلفة التي أحاطت بكل من التجربتين، «فمحمد علي كان يعمل في بلد اعتاد الناس فيه على وجود الدولة وتدخلها في حياتهم، وقد قصر جهده على البناء المادي لهذه الدولة الحديثة التي سعى لبقائها، بينما عبدالقادر يعمل في بلد اعتادت منذ القدم على حياة المجموعات المستقلة وعلى غياب الدولة، ومن جهة أخرى كانت الظروف الخارجية والداخلية تسهل مهمة محمد علي بعكس الوضع بالنسبة لعبد القادر» .

ولا تتوقف الصعوبات التي كان يجدها عبدالقادر في سبيل تحقيق هدفه، إذا قيس بمحمد علي، عند الظروف الداخلية والخارجية فقط، بل إنها تتجاوز ذلك إلى تحديد مفهوم المهمة المطلوب إنجازها لدى كل منهما، ففي الوقت الذي كان يسعى فيه محمد علي إلى بناء الدولة في شكلها التنظيمي الذي يساعده على تحقيق أحلامه في التوسع والاستقرار، فإن عبدالقادر كان معجباً دون شك بهذه التجربة في بناء النهضة، وقد ذكر الضابط الفرنسي ماسو الذي كان أسيرًا لدى عبدالقادر (١٨٤٠ - ١٨٤١م) في

تقرير له إلى وزير الحربية الفرنسي بعد أن تحرر من الأسر أن عبدالقادر كان يحلم أن يكون مثل محمد علي، وقد يدفعه طموحه إلى الإبداع مثله[١٢٥].

لكن من الحق أن يقال إن عبدالقادر كان معنياً إلى جانب ذلك ببناء أفراد الأمة، فلم يكن يحس مثل محمد علي أنه والٍ عثماني، يستغل موقعه والأمة التي ولّي عليها في تحقيق طموحاته، وقد تستفيد الأمة من خلال ذلك، أو تستفيد بعض شرائحها وتستغل الشرائح الأخرى، ولكن كان يحس بأنه أحد أبناء هذه الأمة التي اختارته هي دون سواها، وأنه معني ببناء أفرادها إلى جانب هيكل نظامها «كان محمد علي يمثل الاستبداد المستنير، وكان مفهومه يقوم على أن وجود الدولة يعني وجود الأمة، أما عبدالقادر فقد عمل في آن واحد على تكوين الأمة والدولة معًا»[١٢٦].

وعلى أية حال فقد عاد عبدالقادر من هذه الرحلة مزودًا بكثير من التجارب والأفكار في مجالات المعرفة والإصلاح، وغالب الظن أن عزيمته في تلك الفكرة كانت متجهة إلى التطوير المعرفي لذاته ولمن حوله، بعد لقائه بعلماء المشرق في مصر وسوريا والحجاز والعراق، وإدراك أهمية توافر المكتبات الغنية حول المتعلم والباحث، وأهمية امتداد مجال اهتمامات المتشوق إلى المعرفة إلى خارج دائرة العلوم اللغوية والدينية البحتة التي نهل منها من قبل قدرًا كافيًا لبدء سياحة معرفية متكاملة، ومن أجل هذا فقد كان سعيدًا بالثروة التي حصلها خلال هذه الرحلة من المخطوطات القيمة من بلاد المشرق، وقد شكل منها نواة مكتبة هامة، تُعدَّ من أثمن مكتبات هذه الأيام[١٢٧]، وهي المكتبة التي سوف يتوسع فيها عندما يتولى الإمارة ليشكل منها نواة مدينة علمية في «تقدمة» التي كانت واحدة من مشروعاته لإنشاء جامعة ومكتبة مركزية لولا أن الفرنسيين أحرقوها في صراعهم غير الشريف معه[١٢٨].

وبعودة عبدالقادر بمكتبته الثمينة من المشرق، قرر أن يعتزل بجوارها لتحصيل العلم، فلزم الخلوة حيث عكف على مطالعة كتب العلم والفلسفة، فدرس رسائل أفلاطون وفيثاغورس وأرسطوطاليس، وركز في دراسة التاريخ والجغرافيا، والهندسة والنباتات الطبيعية[١٢٩].

لكن الواجب الوطني لم يتركه في خلوته، فقد دارت الأحداث على النحو الذي أشرنا إليه من قبل، ودعا داعي الجهاد، وكان عبدالقادر فتى مكتمل الجسم والعقل، يفيض شجاعة ورجولة وفروسية وإيماناً، فنفر إلى أداء الواجب جندياً، حتى اجتمعت كلمة القبائل على إسناد الإمارة إلى والده الشيخ محيي الدين الذي رشَّح ابنه الفتى الشاب (بعد أن هددوه بالقتل إن هو امتنع) فجاءوا بعبد القادر من إحدى مواقع مكافحة الفرنسيين، فبويع وبدأ رحلة الإمارة الشاقة، التي سيلمع فيها نجمه مخططاً ومنظماً ومقاتلاً ومفاوضاً ومناوراً، ويرسم من وراء ذلك صورة ناصعة في سجل الشخصيات البارزة .

٣ - مرحلة الإمارة:

بويع عبدالقادر أميرًا على الجهاد في سبيل الله سنة ١٨٣٢م، واتخذ من مدينة معسكر في غرب الجزائر عاصمة له، وحظي بتأييد القبائل الهاشمية ورجال الطرق الصوفية، ثم أخذ يرتب لاتساع مساحة مؤيديه، وانحسار مساحة مناوئيه، حتى يتمكن من تحقيق هدفه في المحافظة على الجزائر حرة عربية مسلمة .

وخلال فترة إمارته (١٨٣٢ - ١٨٤٨م) حقق عبدالقادر انتصارات كبيرة، حتى في لحظات هزائمه، وسجلت شخصيته نموذجًا فريدًا في ضرب القدوة بنفسه أولاً في تحمل الأعباء والمشاق والعف عن المكاسب والمال العام والمخاطرة بنفسه قبل أصحابه في ميدان الحرب، وإظهار الفروسية في الدفاع عن أوليائه والنبل في معاملة أعدائه، وإظهار الحنكة والبراعة في التنظيم الدقيق لأمور الدولة ومرافقها المختلفة في زمن السلم والحرب، ووضعه الخطط لتنظيم الجماعات والرقي بها، ثم إظهار البراعة الدبلوماسية في مفاوضة الأعداء ومناورتهم، وضرب بعضهم بالبعض الآخر للحصول على أكبر قدر ممكن من حق بلاده الذي يغتصب أمام عينيه، وتميزت شخصيته إلى جانب ذلك كله بالدماثة والشاعرية وحب الجمال والحرص على صلة الأهل والإخوان، ومجالسة العلماء وإكبارهم، مما جعل منه شخصية محبوبة حتى لدى أعدائه الذين احترموه

وقدروه، واكتسب شعبية في بلادهم أكثر من بعض قادتهم الذين حاربوه باسم مصلحة فرنسا .

وسوف نكتفي في عرضنا الموجز هنا بالملامح العامة الدالة على مزايا هذه الشخصية المتفردة دون الدخول في التفاصيل التي يمكن العودة إليها في كتب التاريخ والسير التي اهتمت به، إلا بالقدر الذي يكون الوقوف فيه أمام بعض التفاصيل معيناً على توضيح ملامح الصورة .

لقد أحس عبدالقادر بثقل أعباء ما ألقي إليه من مسئولية منذ اللحظة الأولى، وكان يتمثل مفهوم مسئولية الراعي عن الرعية كما تصوره أقوال الصحابة والسلف الصالح، ومن هذه الناحية كان عبدالقادر، كما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله، صحابيًا متأخرًا، أو كما يقال: « بقية السلف الصالح»[١٣٠] ، ومن صور التعبير عن ذلك أن أول عمل قام به بعد أن بويع أنه دخل على زوجته خديجة فقال لها : « إن أردت أن تبقي معي من غير التفات إلى طلب حقك مني فلك ذلك، وإن أبيت إلا أن تطلبي حقك، فأمرك بيدك لأني قد تحملت ما يشغلني عنك »[١٣١]، فكان أن أكدت له أنها شريكته في الجهاد كما أنها شريكته في الحياة، وذلك موقف يذكر بمواقف الراشدين من أمثال عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز من زوجاتهم بعد الحكم .

ولكن اللافت للنظر مسارعة عبدالقادر فور تولي الأمر بالحرص على تطبيق نظام مدني أقرب إلى نظام الدولة الحديثة في القرن التاسع عشر، في بلاد كان يسود فيها النظام القبلي، فقد اتخذ عاصمة له هي معسكر، واختار عَلَماً جديدًا للإمارة من اللون الأخضر، يتوسطه اللون الأبيض، وقد رسم عليه باللون الذهبي : « نصر من الله وفتح قريب، ناصر الدين عبدالقادر بن محيي الدين»، ثم شكل « مجلس الشورى» المكون من أحد عشر عضوًا من كبار العلماء والأعيان، يمثلون المناطق المختلفة، وجعل على رأسهم قاضي قضاة الجزائر، وألف حكومة كانت تُعد من أوائل الحكومات المنظمة في العالم العربي[١٣٢]، وقد تشكلت وزارته من رئيس للوزراء، وكان يقوم

بهذه المهمة الأمير عبدالقادر، ونائب للرئيس، ووزير للخارجية، ووزير للأوقاف، ووزير الأعشار والزكاة، ووزير خزينة المملكة، ووزير الخزينة الخاصة، وبعد الوزراء يأتي الكتبة وهم ثلاثة، ثم الحاجب، وإلى جانب هذه المجالس الثابتة جعل هناك مجالس مفتوحة تتمثل في علماء الأمة الذين كان يستفتيهم عبدالقادر فيما يعرض له من أمور، ويتلقى آراءهم مكتوبة، ولم يكن يقف عند علماء الجزائر وحدهم، بل كان يراسل علماء المغرب كذلك. وقد أفاده ذلك في تثبيت أركان إمارته، فإلى جانب الاستنارة بالآراء في إقامة العدل، حمته تلك الآراء من إرجاف المرجفين، وبخاصة بعض الطرق الصوفية التي كانت تعارضه أحياناً بحجة عدم الالتزام بالآراء الدينية، فكان في فتاوى هؤلاء العلماء حماية له، وإبطال لحججهم، وجمع لقلوب الناس حوله.

وفي مجال التنظيم الاقتصادي، كان يدرك عبدالقادر في حالة حرب الإبادة التي تشنها فرنسا على شعبه أهمية حرب «القوت» له ولأعدائه، فكان يحاول في وقت واحد أن يؤمن القوت الضروري لأتباعه، وأن يحرم أعداءه من مزايا سهولة التعامل مع أبناء البلاد، ويذكر عبدالقادر خطته في الأمن الغذائي، فيقول: «ولم تكن الاحتياطات تكفي لتموين جيشي في كل المجالات التي دعاه واجب الحرب للعمل فيها، لذلك أمرت تفادياً لوضع حمل جديد على الأهالي بإقامة مخازن للحبوب تحت الأرض في كل ولاية، وكانت هذه المخازن، التي كانت تحت مسئولية قائد كل قبيلة، والتي كان العدو لا يستطيع العثور عليها، تحتوي على الحبوب التي تدفع كعشور... وبهذه الطريقة برهنتُ للعرب الذين من طبيعتهم الشك، أنني لم آخذ شيئًا من الضرائب لمصلحتي الشخصية، لقد جعلتهم يدفعون للصالح العام، فأجابوني، والواقع أن هذه المخازن هي التي أجَّلَتْ سقوطي، فعندما جردت من مخازن تموين، أصبحت مضطرًا إلى فرض مطالب جديدة على القبائل، ولما شعرت هذه القبائل بالضغط الشديد من الجهتين ارتخى حماسها للجهاد»[١٣٣].

والواقع أن الخطة في غاية الدقة والذكاء، فهي تجمع زكاة العشور من ناحية، وتطمئن دافعيها إلى أنها مختزنة تحت أقدامهم هم، تشكل قُوتَهم الضروري في الأزمات من ناحية أخرى، فيتحمسون لدفعها ويقومون بحراستها وإخفائها عن أعين الفرنسيين الذين يغيب عنهم سر صمود هذه القبائل، وفي الوقت نفسه يخف عن كاهل الأمير عبء توفير القوت لهم، فلا يفرض عليهم ضرائب إضافية . ويضاف إلى ذلك كله حرصه على أن ينزع الشك من نفوس «العرب» في طمع الولاة والحكام في الإثراء الشخصي من خلال الحكم، فما يدفعونه يحتفظون به لقوت أولادهم، فتتولد لديهم الثقة ويسلس قيادهم، ويستسلمون لأوامر الأمير.

ولقد كان عبدالقادر شديد التعفف عن المال العام، وظل ينفق على نفسه وبيته من أملاكه الخاصة القليلة بعد تولي الإمارة، وكان يقول[١٣٤] : « لم أمَسّ قط أي شيء مما أعطاني العرب للمصاريف العامة، حتى اللحظة التي وضع فيها الفرنسيون أيديهم على أملاكي القليلة، وعندئذ لم آخذ إلا ما كان ضرورة مطلقة، فملابسي كانت تصنعها نساء بيتي، ودخلي القليل كان يكفي لحاجات أسرتي، بل حتى الفائض القليل الذي ترك لي كنت أصرفه في مساعدة الفقراء والمساكين، وبالأخص المحتاجين من أصحابي في السلاح الذين كانوا قد خرجوا أثناء الجهاد . . وكل مواردي في الحقيقة كانت مكرسة فقط لخدمة الصالح العام، وعندما استؤنفت الحرب ١٨٣٩ دعوت العرب لمنحي قرضًا كبيرًا غير أنهم استجابوا ببطء، وفي الحال بعت في المزاد كل مجوهرات عائلتي في أسواق معسكر معلناً على الملأ أن دخلها سيرسل إلى الخزينة العامة، فجاء القرض حينئذ بسرعة» .

كانت هذه فلسفة الأمير عبدالقادر في توجيه الدخل، وتأمين القوت، وعفة اليد، واكتساب الثقة، وفي المقابل فقد حاول أن يضيق الخناق على أعدائه في المعاملات الاقتصادية مع الجزائريين ما وسعه ذلك، فكان يضرب على جنودهم لوناً من الحصار الاقتصادي، فيمنع القبائل من التعامل معهم والبيع لهم والشراء منهم، ويطلق

على من يكسر هذا الحصار «المتنصرين»[١٣٥] إشارة إلى خروجهم على الإسلام واعتناقهم النصرانية، ويسانده في هذا الإطلاق فتاوى العلماء الذين يشكلون مجلس الشورى أو ينتشرون في أرجاء البلاد وحتى خارجها، وكان لهذه الفتاوى ولتلك القرارات أثرها الشديد على الفرنسيين، فقد « أخذ القائد الفرنسي في وهران في تجميع بعض الشيوخ من الأهالي المقيمين حول المدينة، واستعمل في ذلك الترغيب والترهيب وشراء الذمم، وذلك لاستخدامهم في الحرب ضد عبدالقادر، وعقد معهم بعض الاتفاقات الخاصة بالخدمة في صفوف الفرنسيين وتقديم المؤن والرجال، وذلك نظير المرتبات والحماية الفرنسية، فما أن سمع الأمير بذلك حتى طلب إلى هذه القبائل أن تأتي صوب الجنوب، وكان عبدالقادر يهدف إلى قطع الصلة بين الفرنسيين والأهالي، ويمنع عن الفرنسيين كل عون يحصلون عليه من الأهالي، ويؤمن على دولته بإقامة منطقة محرمة خالية من السكان بينه وبينهم[١٣٦] .

وإلى جانب البراعة التي أبداها الأمير في مجال التنظيم الإداري، والتخطيط لاقتصاديات الحرب، وإظهار الترفع والعفة أمام المال العام، فقد أظهر كذلك براعة التخطيط العسكري في محاولته لبناء جيش حديث في حدود ما أتيح له من ظروف وإمكانات وينبغي - لتقدير أهمية ما فعله الأمير - أن نتذكر ما كان عليه الحال عند دخول الفرنسيين إلى الجزائر، فقد انهارت قوة الإنكشارية الصغيرة غير المتحمسة، ورضيت من الغنيمة بالإياب سالمة إلى مرافئ خارج الجزائر، وبقيت قوات القبائل غير المنظمة يصعب الاعتماد عليها في وضع أي خطة لمواجهة جيش حديث منظم، كان يُعد من أقوى جيوش الدنيا في ذلك العصر .

ولقد بلغ به الاهتمام في وضع أسس تنظيمية للجيش أنه وضع مؤلفات حول التنظيم العسكري طبعت في فترة مبكرة من جهاده، وكان منها الكتاب الذي وضعه بعنوان « وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب» والذي وضع فيه الأسس والمبادئ لنظام الجندية الجديد،

وكذلك طبع له بالفرنسية في سنة ١٨٤٨م، كتاب جمع بعض أشعاره ونظمه العسكرية، وصدر عن دار النشر «هاشيت» وهي من أشهر دور النشر الفرنسية التي ما تزال قائمة وكان عنوان الكتاب: Poesie d'Abdel - kader, les reglements militaires. libraire Hachette, 1848 .

«أشعار عبدالقادر ونظمه العسكرية»، وقد طبع في باريس على حجر على القاعدة المغربية، ويتألف من ستين صفحة، وله مقدمة باللغة الفرنسية تتألف من ثماني صفحات[١٣٧] .

وقد عمل على تزويد الجيش بالأسلحة، ولجأ في ذلك إلى كل الطرق المتاحة، بما في ذلك الاتفاق مع فرنسا في بعض مراحل الهدنة بين الصراعات على تزويده ببعض الأسلحة، بل حاول إقامة صناعة للسلاح على النحو الذي فعله محمد علي في مصر، لكن الظروف لم تساعده على ذلك[١٣٨]، وعلى الرغم من أن العدو لم يمهله فترات طويلة لكي ينظم جيشه كما يريد، فقد استطاع أن « يقسمه إلى ثلاث فرق: مشاة، وخيالة، ومدفعية، ووحد زيَّه، وأصدر القوانين العسكرية التي يتوجب على الجندي التمسك بها، ويعاقب عقاباً صارمًا وشديدًا إذا ما حاد عنها، وكان قادة الجيش يتمتعون برتب عسكرية مرموقة، ولابد للجندي أن يتخطى في صعوده الدرجات التالية: جاويش: يرأس ١٢ جندياً، رئيس الصف: يرأس عشرين جندياً، السياف: يرأس ١٠٠ جندي، الآغا: يرأس ١,٠٠٠ جندي، وعين لكل آغا أو سياف كاتباً يتولى شئون الحسابات والرسائل والتقارير، ويشرف على توزيع الطعام والرواتب الشهرية على الجند[١٣٩]، ولكي يتميز الرئيس عن المرؤوس، منح الضباط حسب رتبهم علامات من الذهب والفضة والجوخ الأحمر. . . وكانت أوسمة الفخر والشرف تمنح لمستحقيها في حفل كبير يحضره الأمير أو خليفته، وتعزف فيه الموسيقى العسكرية . . وتم وضع نظام دقيق للرواتب الشهرية والماء والغذاء، إلى جانب المستشفيات المتنقلة التي كانت تلازم الجيوش في تحركاتها، ويقوم على شئونها أطباء جزائريون مهرة يساعدهم ممرضون عسكريون »[١٤٠] .

إن هذا التنظيم العسكري الحديث كان يسانده شيء آخر على درجة بالغة الأهمية، ويتمثل في القدوة الحسنة بتقديم نموذج للفروسية والبطولة، وفي تقوية الروح المعنوية من خلال تحميس الجنود وشدة الاختلاط بهم، وقد ضرب عبدالقادر أمثلة رائعة في المجالين من خلال كونه بطلاً للسيف واللسان معاً عَبْرَ فروسيته وشعره. كان عبدالقادر منذ شبابه المبكر قد تدرب على فنون الفروسية والقتال، وأبدى فيها مهارة هائلة، وساعده قلب شجاع، وإيمان ديني عميق، وتمسك شديد بالدفاع عن أمته، والمؤرخون الذين عاصروه عن قرب، وشاهدوا بطولاته، وجلسوا إليه، يقدمون صورة شبه أسطورية عن قدراته الخارقة في مجال الفروسية، يقول المؤرخ البريطاني هنري تشرشل الذي كتب سيرة عبدالقادر في حياته: «كان لا يدانيه أحدٌ فروسية، ولم يكن عبدالقادر فارساً مهيباً فحسب، بل إن تفوقه المدهش في كل متطلبات الفروسية التي توجب العين القوية، واليد الثابتة، والرجولة الحقة، كان حديث كل أولئك الذين عرفوه، فقد كان يلمس كتف فرسه بصدره، ويضع إحدى يديه على الفرس، ثم يقفز إلى الجانب الآخر، أو أنه كان يدفع الفرس إلى أكبر سرعة ممكنة، ثم ينزع قدميه عن المهماز، ويقف على السرج، ويطلق النار على هدفه بدقة عجيبة، وبلمسته الخفيفة الماهرة يثني الفرس العربي المدرب ركبتيه، أو يمشي مسافات على رجليه الخلفيتين، بينما تضرب قائمتاه الأماميتان، أو يلوح ويقفز بهما كالغزال . . . «وخلال مناسبات كثيرة مليئة بالخطورة والمبادرة، استعمل فيها عبدالقادر سيفه البكر، أدت شجاعته وفروسيته لا إلى الثناء عليه فقط، بل الإعجاب المنقطع النظير به، فقد بدأ العرب ينظرون بتقديس خرافي إلى رجل يتمتع بشخصية وسيمة، ويتقدم بلا خوف حيثما هدده الخطر، فهو مرة يمرق من صفوف الرماة الأعداء، ومرة يطلق النار في شكل تربيعي، ويكتسح حربات البنادق بسيفه، وأخرى يقف دون حراك مشيرًا بامتعاض إلى قنابل المدافع وهي تئز حول رأسه، وإلى القذائف وهي تنفجر تحت قدميه»[١٤١].

لقد ارتسمت لعبد القادر الفارس صورة مهيبة أسطورية لا في عيون جنوده فحسب، وإنما في عيون الأوربيين أنفسهم، وبخاصة الإنجليز الذين كانوا يتابعون بشماتة ما يفعله هذا البطل المغوار بأعدائهم الفرنسيين، ويسخرون من الإشاعات التي يطلقها الفرنسيون، معبرين عن رغباتهم الدفينة بأن عبدالقادر قد قتل في إحدى المعارك، وقد سخرت مجلة «بانش» وجريدة «التايمز» اللندنية في أكتوبر ١٨٤٧م من إشاعات الفرنسيين، وطمأنتهم بأن البطل له أكثر من الأرواح السبعة التي تمتلكها القطط: «إنه كالعملاق القديم الذي قيل مرارًا بأنه قد قتل، حدث عن القط، لماذا تعد حياته لا شيء إلى جانب حيوات عبدالقادر، أو على السهولة التي يستطيع بها دائمًا أن يسقط من ظهر جواده على قدمه، كم من مرة ترك بلا جواد، ومع ذلك وبحيلة ما، فهو دائمًا أكثر شدة عندما لا تبقى له قدم يقف عليها»(١٤٢).

إن هذه الصورة الجميلة التي ترسمها أقلام المؤرخين والصحفيين الأوربيين، نجد معادلاً لها في اللوحات الشعرية الصادقة التي رسمها عبدالقادر نفسه، وامتزج في بعضها روح التضحية والبطولة والفروسية بمخاطبة الأنثى الرمز الذي يتباهى أمامه الفارس العربي ببطولاته، يقول في إحدى قصائده(١٤٣):

تسائلني أمّ البنين وإنّها
لأعلم مَنْ تحت السماء بأحوالي
ألم تَعْلمي يا ربّة الخدر أنّني
أجلّي هموم القوم في يوم تجوالي
وأغشى مضيق الموت لامتهيبًا
وأحْمي نساء الحيّ في يوم تَهوالِ
إذا ما لقيتُ الخيل إنّي لأولٌ
وإنْ جال أصحابي فإني لها تالِ

أدافعُ عنهم ما يخافون من ردىً
فيشكر كلُّ الخلق من حُسن افعالي
وأورد رايات الطعان صحيحةً
وأصدرها بالرمل تمثال غربالِ
ومِنْ عادة السادات بالجيشِ تحتمي
وبي يحتمي جيشي وتُحرس أبطالي
وبي تُتَّقى يوم الطعان فوارسٌ
تخالينهم في الحرب أمثال أشبالِ
إذا ما اشتكتْ خْيلي الجراح تحمحماً
أقول لها صبراً كصبري وإجمالي
وأبذلُ يوم الروع نَفْساً كريمةً
على أنّها في السلم أغلى من الغالي
وعنّي سلي جيش الفرنسيس تعلمي
بأنّ مناياهم بسيفي وعَسّالي
سلي الليل عنّي كم شققتُ أديمَهُ
على ضامرِ الجنبين معتدلٍ عالِ
سلي البيد عنّي والمفاوز والرُّبى
وسَهْلاً وحَزنًا كم طويتُ بترحالي
فما همّتي إلا مقارعةُ العدا
وهزمي أبطالاً شدادًا بأبطالِ

والقصيدة مع صدقها ودلالتها على فروسية صاحبها وشجاعته تعكس أصداء القصائد القديمة في فخر الفرسان في مثل هذه المواقف، فهي من حيثُ الإيقاع الموسيقي تذكر بلامية امرئ القيس:

ألاعِمْ صباحاً أيّها الطلل البالي
وهل يَعِمَنْ مَنْ كان في العصر الخالي

والتي يرد فيها قوله :

ولم أشهدِ الخيل المغيرة بالضحى

على هيكلٍ عبل الجُزارة جوّالِ

فلو أنّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ

كفاني ولم أطلبْ قليلٌ من المالِ

ولكنّما أسعى لمجدٍ مؤثّلٍ

وقد يُدرك المجد المؤثّل أمثالي

وتذكر بعض الصور الواردة فيها ببعض صُور معلقة عنترة، وهي قائمةٌ كذلك على مخاطبة الأنثى (ابنة مالك) والافتخار أمامها بالبطولة :

هلا سألتِ الخيلَ يابنةَ مالكٍ

إنْ كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي

يُخْبركِ مَنْ شهد الوقيعة أنّني

أَغْشى الوغى وأعفُّ عند المغنمِ

وقائمة كذلك على الاعتزاز بأنه فارس يتقي به الأبطال الآخرون أسنة الرماح :

في حومة الحرب التي لا تشتكي

غمراتها الأبطال غير تغمغمِ

إذ يتّقون بيَ الأسنّة لم أخمْ

عنها ولكن لا تضايق مقدمي

وهي صورة تذكر بها هنا الصورة الواردة في قوله :

وبي يتّقي يوم الطعان فوارسٌ

تخالينهم في الحرب أمثال أشبالِ

أما الحصان الذي يشتكي لصاحبه في المعركة فهو مشترك هنا وهناك ، فعنترة يقول في صورته المشهورة :

فازورَّ مِنْ وقع القنا بلبانِهِ
وشكا إليَّ بعبرةٍ وتحمحمِ
لو كان يَدري ما المحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام مُكلّمي

وعبد القادر يقول :

إذا ما اشتكتْ خيلي الجراح تحمحماً
أقول لها : صبراً كصبري وإجمالي

لكن مثل هذا التشابه هنا أو هناك متوقع في مثل مناخ هذا العصر الذي كانت موجة تقليد الأدب القديم فيه ، هي البداية الصحيحة للوصول إلى مرحلة النهضة فيما بعد .

وعبد القادر لا يكتفي في شعره بالاعتزاز بنفسه فارساً مقداماً ، ولكنه يعتز كذلك بجنوده الأبطال الميامين ، ويرسل إليهم إن ابتعدوا عنه في مهام الجهاد قصائد التحية والشوق وشد الأزر ، ويبدو أسلوبها وكأنه مراسلات بين الأصدقاء والأحبة ، و « قد أرسل مرة بقصيدة طويلة تبلغ زهاء خمسين بيتًا إلى جيوشه في جبال «جرجرة» للشكر والتشجيع ، وكان الأعداء قد أرجفوا بموته ، فلم يعبأ بذلك ، واستمر يجاهد وينظم الشعر »(١٤٤) .

وهو يبدأ قصيدته إليهم على النسق التقليدي ، فيحمل ريح الجنوب إليهم التحية والسلام ، ويشكو من أن جفنيه قد فارقهما المنام ، وقد أصبح مشتاقًا وقد عز اللقاء إلى مجرد لقاء طيف الأحبة :

ماذا يضرّ احبّتي لو أرسلوا
طيف المنام يزورني بتمثّلِ
كلّ الذي القاه في حيف الهوى
سهلٌ ، سوى بَيْنِ الحبيب الأفضلِ

كـــيف الـتـــصـــبّـــر عنهمُ وهمُ همُ

أربابُ عـــهـــدي بالعـــقـــود الكُمّلِ

وبعد هذه المقدمات يخلص إلى مدحهم والثناء عليهم :

هـم بـالمديـح أحـقُّ لـكـن ربّـمـــــــا

ضـــاعتْ حـــقـــوق بالعـــدا والعُـــذّلِ

إنْ غـــيـــرهم بالمال شحَّ ومـــا سَـــخـــا

جـــادوا ببـــذل الـنفس دون تـعـلّـلِ

البـــاذلون نفـــوســـهم ونفـــيـــســـهُمْ

في حـبّ مـــــالـكنـا الـعظيـم الأجـلـلِ

الـصـــادقـــون الـصـــابرون لدى الـوغى

الحـــاملـون لكلّ مـــا لَمْ يُحْـــمَـلِ

مـــا منهـم إلا شـــجـــاع قـــارعٌ

أو بـارع في كلّ فـــعـل مُـــجْـــمَـلِ

ثم يلجأ إلى أسلوب التكرار لكي يعدد مزاياهم في نسق استعراضٍ موسيقي، يدفع نفوس الجنود إلى الاعتزاز والزهو والرغبة في بذل المزيد، وهو يعتمد في التكرار على أسلوب « كم» الخبرية الدالة على التكثير، فيرددها نحو عشرين مرة في مقطع صغير إشارة إلى كثرة مزاياهم وتعددها :

كم نافـســوا ، كم ســايروا ، كم ســابقــوا

مِنْ ســـابق لفـــضـــائل وتَـفـــضـّلِ

كم حـــاربوا ، كم ضـــاربوا ، كم غـــالبــوا

أقـــوى الـعـــداة بكثـــرة وتمـوّلِ

كم صـــابروا ، كم كـــابروا ، كم غـــادروا

أعـــتى أعـــاديهم كـعـــصف مـــؤكلِ

كم جــــــاهـدوا ، كم طـاردوا ، وتجـلّـدوا
للـنـائـبـــــات بـصــــــارم وبمِـقْـــــوَلِ
كم أدلجـوا ، كم أزعــجـوا ، كم أسـرجـوا
بتــســـــارع للمـــــوت لا بتـــمــــهّلِ

وعلى هذا النحو تسير نغمة تشجيعه لجنوده وتعديده لمزاياهم ورفعه لمعنوياتهم، مما يترك أفضل الأثر في نفوسهم، ويمدهم بطاقة روحية لا تقل عن الطاقة المادية في أيديهم، وبخاصة أنه يختم القصيدة بالدعاء لهم بالحفظ والرعاية :

يــاربِّ ، يــاربَّ الـبــــــــــرايـا زِدْهــمُ
صـــبـــراً ونصـــراً دائمًـــا يتكمّلُ
يـا ربِّ يـا مـــــولايَ وابـقـــــهـمُ قــــذىً
فـي عـيـن من هـو كـــــافــــر بـالمرسلِ
وتجـــاوزنْ مــــولايَ عن هـفـــواتهـمْ
والـطـفْ بـهـم فـي كـلّ أمـــــــر مُـنْـزَلِ

إن هذه المهارة الفائقة في تنظيم الجنود وتعبئتهم إلى جانب شجاعة القائد وفروسيته، وضربه المثل الحسن في الإقدام والتضحية، كل هذا كان من شأنه أن يساعد الأمير عبدالقادر في تحقيق الانتصارات العسكرية المتتالية على فرنسا بالرغم من التفاوت الكبير في العدد والعُدة والخبرة العسكرية .

ففي العامين الأولين لتولي عبدالقادر الإمارة، اعتمد على شن حرب العصابات والحصار الاقتصادي ضد الفرنسيين، ومحاصرتهم في وهران ومستغانم، « وكادت الجيوش الجزائرية تخنق القوات الاستعمارية داخل الحصون لو لم يمل القائد الفرنسي دي ميشيل إلى المراوغة وطلب الصلح»[١٤٥] ، وأوعز إلى عبدالقادر بأن يبدأ بطلب الهدنة لكي يقبلها الفرنسيون، وغلف إيعازه بالتهديد الخفي بقوة فرنسا الهائلة، فكان رد عبدالقادر عليه قوياً وواضحاً : « إن ديننا يمنعنا من طلب الصلح ابتداء، ويسمح لنا

بقبوله إذا عرض علينا، وإن المفاوضة التي تطلبونها يجب أن تكون مبنية على شروط محترمة منا ومنكم، ويرد على تلميحه بقوة فرنسا قائلاً : « متى خرجتم من وهران مسافة يوم أو يومين، يظهر للعيان من يستحق الفخر منا »[١٤٦] .

وكان من نتيجة ذلك توقيع الاتفاقية التي عرفت باسم القائد الفرنسي «دي ميشيل»، والتي تم فيها اعتراف فرنسا رسمياً بإمارة عبدالقادر على أجزاء كبيرة من الأراضي الجزائرية، وكان الأمير قد أظهر براعة ديبلوماسية أثناء التفاوض، حين أشرك في المفاوضات الحاكم الفرنسي في الجزائر، ولم يكتف بمجرد التفاوض مع القائد العسكري الذي كان يرغب في أن يقتصر الأمر عليه وحده، ولم يشترك هو في التفاوض مع القائد العسكري، بل أرسل إليه وزير خارجيته الحاج الميلود بن عراش، واحتفظ لنفسه بحق التصديق على المعاهدة هو وملك فرنسا، لينفي فكرة التبعية، ويؤكد استقلال الشخصية[١٤٧] .

ولكي يضمن الوصول إلى نتائج مشرفة، واصل الضغط والحصار حتى يمحو من نفس القائد الفرنسي ما جاء في رسالته من عبارات التهديد بالقوة « فكاد الجوع يفتك بالفرنسيين المحاصرين في المدن والقلاع، ويجد دي ميشيل نفسه مضطرًا إلى التراجع في لهجته، فيكتب رسالة يقول له فيها : « إذا كان سموكم يود أن نتخابر في أمر انعقاد الهدنة، فأنا على أتم استعداد لذلك، ومع الأمل أنه يمكن التوصل إلى معاهدة محترمة، يتوقف فيها سفك دماء أمتين، شاءت الإرادة الإلهية أن لا تكونا تحت سلطة واحدة» وقد قضت شروط الهدنة وقف الحرب بين الطرفين، وكفالة حرية القيام بالشعائر الإسلامية في المناطق الواقعة تحت الاحتلال، وعودة العلاقات التجارية بين المدن الجزائرية، بما يعني فك الحصار عن الفرنسيين، وتعيين كل طرف ممثلاً له لدى الآخر، وقد وقع عبدالقادر الاتفاقية مع الحاكم الجزائري في مدينة وهران في فبراير سنة ١٨٣٤م، ورفعت إلى الحكومة الفرنسية للموافقة عليها، فوافقت على مضض،

ويبدو أن كلا الطرفين كان يرى في الاتفاقية هدنة لالتقاط الأنفاس، وإعادة ترتيب الأوضاع، وقد استغلها الأمير فعلاً لمد نفوذه في بلاد المغرب الأوسط، وإخضاع القبائل التي لم تكن قد دخلت في طاعته، وقد هزمها في موقعة قرب «تلمسان» سنة ١٨٣٤م، وكان من الطبيعي أن يتطلع بعد بسط نفوذه على غرب الجزائر إلى الشرق، وإلى العاصمة الجزائر، فكان تحرك الفرنسيين ليحولوا دون انضمام القبائل إليه بعد جمعها في معاهدة التينة سنة ١٨٣٥م، وإضفاء الحماية الفرنسية عليها، مما اعتبره عبدالقادر خرقاً للمعاهدة، وبدأت بوادر العودة إلى الصراع المسلح، وظنت فرنسا أنها فرصة لتثبيت صورة المهابة التي اهتزت قليلاً في معاهدة دي ميشيل، فخرج الجنرال تريزيل - الذى كان قد حل محل دي ميشيل - في قوة كبيرة من ٥,٠٠٠ من المشاة وفرق من الخيالة من وهران « يريد أن يوقع بقوات الأمير عبدالقادر، فعبأ الأمير قواته، والتقى بقوات تريزيل، وألحق بها هزيمة منكرة، وأجبرها على التراجع صوب وهران، لكن لحقت بها قوات الأمير عند مجاز نهر هبرة في المنطقة المعروفة بالمقطع، حيث أوقع بها هزيمة منكرة، فقُتِل عدد كبير من القوات الفرنسية (نحو أربعة آلاف)، وغرق الكثيرون في النهر، وغنم الأمير الكثير من العجلات الحربية وغيرها من الذخائر والمدافع، واستطاع تريزيل، وبعض ممن بقي على قيد الحياة من رجاله، التسلل إلى ساحل البحر حيث هربوا إلى أرزيو »[١٤٨] .

وكان لهذا الانتصار الكبير دويّه الهائل في داخل الجزائر وخارجها، فلقد كان في الواقع يشكل أولى النتائج الكبرى لكل مراحل الإعداد والتنظيم والتعبئة التي ساندتها قوة الإيمان بالحق وصلابة الرجال وشجاعة القائد وبعد نظره، ولعله من هذه اللحظة، حفر اسم عبدالقادر في صفحات كبار الرجال على المستوى المحلي والإقليمي والدولي، واستمدت الشخصية العربية الإسلامية في الجزائر، بل في كل مكان، قوة دفع لمقاومة ما يحيط بها أحيانًا - بخاصة في عصور الوهن - من عوامل إحباط من شأنها أن تفتّ في كثير من السواعد .

وقد تتابعت الانتصارات وألوان البراعة التي تجلت في شخصية عبدالقادر وهو يقود معارك السلم والحرب في فترة الإمارة، ولا يتسع المجال لكي نقف أمامها جميعًا، وذلك على أية حال مفصل في كثير من المصادر والمراجع التي نشير إليها في هوامش هذا البحث، ولكننا نكتفي بالإشارة إلى بعض المواقف التي تُلقي المزيد من الضوء على الشخصية المتميزة التي نتحدث عنها .

ومن المواقف الجيدة التي تثبت المقدرة الفائقة لعبد القادر على معالجة الموقف بكل ما يتطلبه من أساليب الكر والفر والمناورة والالتحام والابتعاد والحصار الاقتصادي، موقفه أمام إصرار الفرنسيين على احتلال مدينة «معسكر» عاصمته وتدميرها للقضاء عليه .

وكانت الفكرة الفرنسية قد اختمرت نتيجة للسمعة المتزايدة للأمير عبدالقادر، لا باعتباره مقاومًا عنيدًا فحسب، بل باعتباره رجل دولة يسعى لإقامة دولة عربية إسلامية في الجزائر، في الوقت الذي يعلن فيه الخطاب الرسمي الفرنسي أن الجزائر تابعة لفرنسا، وأن سكانها رعايا في أفضل الأحوال إن لم يكونوا مجرد أدوات لتحقيق طموحات المدّ الاستعماري الرأسمالي آنذاك، وكانت مظاهر إقامة الدولة تتشكل، فالأمير معترف به وهو يسيطر على نحو ثلثي الجزائر، والجيش منظم، والحكومة قائمة، ومجلس الشورى قائم، والبلاد مقسمة إلى ولايات تدار بأحكام، والعَلَمُ له طابعه الخاص، وهنالك سعي لإصدار عملة محلية من خلال حرص الأمير على طلب إنشاء مصانع لسك النقود[١٤٩]، وكلها مظاهر استقلال تسير في الاتجاه المضاد للخطط الفرنسية بترسيخ التبعية ومحو الشخصية القومية .

وقررت فرنسا أن تبدأ من نقطة النهاية، أن تحتل العاصمة «معسكر»، وتستولي على مقاليد الأمور فيها وعلى جهازها الإداري والتنظيمي، وتشل حركة سكانها فينتهي رمز الدولة، وكانت قد أعدت خطة لذلك، قاد حملة تنفيذها ولي عهد فرنسا نفسه « دوق دورليان»، وصحبته قوات ضخمة جمعت من «المجرمين والمساجين

والشحاذين والمغامرين . . وكانت الأوامر مشددة لاحتلال العاصمة الثانية للدولة الجزائرية، ظناً منها أنها ستضرب الجزائريين ضربة قاصمة في حال دفاعهم عن معسكر، واعتقدت أنه باحتلال عاصمة الأمير لابد وأن تنهار القوى المعنوية والدفاعية للشعب الجزائري»[١٥٠]، وتنبه عبدالقادر لهدف الخطة، فقرر أن يفوت الفرصة عليهم، فأعد خطة مضادة لإخلاء المدينة تمامًا قبل وصول الفرنسيين إليها، وجعل قواته تناوشهم لكي تؤخر وصولهم ريثما يهيئ مكاناً آمناً لسكان المدينة، وتم ذلك في سرية تامة بعيدًا عن عيون الجيش الغازي، وقد « ترك الأمير عاصمته بمجرد اقتراب الفرنسيين منها، وأخذ معه الأهالي، ودمر المنشآت حتى لا يفيد منها الأعداء، ودخل الفرنسيون مدينة معسكر لكي يجدوها مهجورة تمامًا، وزاد هطول الأمطار مما اضطرهم إلى الجلاء عنها بعد ثمان وأربعين ساعة، وما إن خرج الفرنسيون منها حتى عاد إليها العرب، وكان هذا فشلاً واضحًا للماريشال»[١٥١] .

ولم تكن هذه نهاية المطاف في مواجهة الثور الهائج الذي وجد نفسه ينطح بقرونه في الهواء، فيصاب بالدوار بدلاً من أن يقضي على غريمه كما كان يتوقع، ويبدو أن القائد الفرنسي أراد أن يغطي على فشله بإحداث انتصار سريع في مكان آخر، فعقد العزم على التوجه إلى تلمسان ليصنع بها ما لم يتمكن من صنعه بمعسكر، وبسرعة خارقة تمكن الأمير عبدالقادر من إنقاذها أيضًا بنفس الخطة، وأخلى ما فيها من سكان ومتاع ثم « التحم الأمير بقوات كلوزيل خارج المدينة، ودارت الدائرة على الجيوش الاستعمارية، فالتجأ كلوزيل إلى قلعة كان يختبئ فيها بعض الخونة المنحدرين من أصل تركي ، وبقي داخلها ثلاثة أيام، ثم عاد فخرج منها، واشتبك مع الأمير في حرب سجال، تمكن بعدها من دخول تلمسان، وفرض على من تبقى فيها من أهلها ضرائب باهظة، ثم غادرها إلى وهران بعد أن خلف فيها حامية قادرة على الدفاع عنها، وما كاد يصل وادي « عوشية» حتى اعترض سبيله الأمير بعد أن أرغم على تبديل طريقه، وعاد ليسلك الطريق الساحلية . . . وهناك حاصره الأمير طيلة شهرين كاملين مما

اضطره إلى الاستعانة بحاكم وهران الذي أمده بسفن حربية تمكنت من إنقاذه مع من بقي من رجاله »[١٥٢] .

وهكذا كان عبدالقادر يستطيع أن يحسن المناورة بما يملك من عدد وعدة أمام جيوش تتفوق في كل شيء ، ولكنه يعول على شجاعة رجاله وقوة بأسهم ، وكان دائمًا يطلب من أعدائه أن يرسلوا فريقاً محايداً يحصي جنوده عدداً ، وأن يرسلوا إليهم ضعفهم من الفرنسيين ، أي أن يواجه كل رجل رجلين ، ويعلن أنه واثق من النصر في هذه الحالة على ضعف عدد جنوده ، بل إنه كان في بعض رسائله إليهم يقترح أن يبارزه قائد جيوشهم أو ابن ملكهم رجلاً لرجل ومن كتب له الغلبة سلم له خصمه بالنصر وتم حقن دماء الآخرين .

ومن الطبيعي أن تكون هذه المقترحات كلها - في نظر الفرنسيين - خيالات فارس عربي متمسك ببقايا التقاليد القديمة ، على حين أنهم يرون أن كل شيء مبرر في سبيل تحقيق الهدف ، لكن ذلك لم يدفع عبدالقادر إلى التخلي عن نبله في حالات انتصاراته وانكساراته معاً ، مما دفعهم في نهاية المطاف إلى إجلال هذا السلوك والإشادة به ، لكن ذلك لم يمنعه أيضًا من أن يؤلمهم كما آلموه هو وشعبه ، وكان من مظاهر ذلك حصاره لهم في تلمسان بعد محاولات كلوزيل التدميرية الفاشلة « فقد ظل الأمير محاصراً تلمسان تسعة أشهر كاملة ، قطعت خلالها الرسائل والمواصلات بينها وبين وهران والجزائر ، ويذكر المؤرخون أن الفرنسيين اضطروا إلى أكل الفئران والقطط ، وفي بعض الأحيان كان يتعذر عليهم العثور على هذه الحيوانات . . وتظهر حقيقة الحياة داخل تلمسان من رسالة كافينياك قائد الحامية الاستعمارية حين قال : لقد كنت أشتري القط الواحد بأربعين فرنكًا ثمناً لقوتي »[١٥٣] .

ولم يكن من الممكن للإمبراطورية الفرنسية أن تتحمل أكثر من هذه الهزائم المريرة المتتالية التي دوت أصداؤها في كل أرجاء أوروبا والعالم يومئذ ، وأصبح الجيش الإمبراطوري موضع السخرية من أعداء فرنسا ومنافسيها ، وعلى نحو خاص في

إنجلترا، وأصبحت هزائم الجزائر موضع مناقشات البرلمان الفرنسي المستمرة ومقالات الصحف المحلية والدولية، وجربت فرنسا سياسة تغيير القواد وتغيير الخطط، كل ذلك ومكانة الأمير عبدالقادر تتألق في الداخل والخارج، واتصالاته ومراسلاته تمتد إلى البريطانيين والأمريكيين(١٥٤)، وأخيرًا قررت فرنسا أن تعيد غزو الجزائر من جديد، مستهدفة تحقيق الاحتلال الكامل بدلاً من الاحتلال الجزئي، ومتبعة أسلوب حرب العصابات لا الحرب النظامية، ومعتمدة على سياسة الحرق والإبادة والتطهير مهما كلفها ذلك من ثمن أو سمعة .

وكان الرجل الذي اختارته فرنسا لهذه المهمة، ووضعت تحت تصرفه ثلث الجيش الإمبراطوري كله (نحو مائة وثمانية آلاف جندي) هو الماريشال بوجو Bugeaud ؛ وهو جندي ترقى من ضباط الصف، وكان يتسم بالجلافة والبعد عن الثقافة، حتى إن طريقة حديثه كانت موضع التندر والسخرية من أعضاء البرلمان، وكان نموذجًا لرجل الاستعمار الذي يمقت العرب(١٥٥)، ومع أن بوجو كان في الجزائر من قبل، وكان يعترض على الاستمرار في حرب لا فائدة منها، ويقول إن الحرب في القارة الأوربية تختلف عن الحرب في أفريقيا التي ليست إلا لوناً من صيد الرجال، مع كل هذا فقد بدأ هو عندما أسندت إليه المهمة ينظم بالفعل عملية صيد الرجال من خلال حرب العصابات، وكان قد عمل ضابطاً في أسبانيا أيام نابليون، وعرف حرب العصابات التي شنَّها الإسبان على الجيش الفرنسي، واكتسب خبرة بمقاومة هذا النوع من الحرب، وكان يرى أن الأسلوب الوحيد القادر على إخضاع الجزائر هو أسلوب الحركة لا أسلوب المراكز الثابتة الصغيرة المبعثرة(١٥٦) .

والواقع أن طول خبرة بوجو بالجزائر وبحرب العصابات وانبهاره بخطط الأمير عبدالقادر في الحرب الخاطفة، دفعه إلى اتباع منهج الأمير نفسه، فقرر التخلي عن الدفاع إلى الهجوم، وعن المراكز الثابتة إلى الجماعات المتحركة، وعن الأسلحة الثقيلة

إلى الأسلحة الخفيفة، كما قرر ضرب البنية الأساسية للمجتمع الذي يحاربه، من تدمير موارد الرزق واتباع أقصى درجات العنف في الإبادة والإحراق وصيد الرجال، واستمر يطبق هذا المنهج، وتمده فرنسا بكل الإمكانيات على امتداد سبع سنوات كاملة قضاها حاكمًا عاماً للجزائر (فبراير ١٨٤١ - سبتمبر ١٨٤٧م) لقد «ارتكزت خطته على سرعة الحركة والمبادرة بالهجوم، وإجهاد الأمير بالمعارك المتعددة، واستنزاف قوته المادية والاقتصادية بشن حرب إرهابية سريعة على كافة المتعاونين مع الأمير والمتعاطفين معه، وعمل على تخريب القرى وحرق المزارع، واستباحة أراضي القبائل، واتبع سياسة التجويع والتخريب لإجبار القبائل والأهالي على الاستسلام، فقسم جيشه إلى مجموعات سريعة الحركة، وزودها بتعليمات تقضي بتدمير وحرق وإبادة كل شيء للعدو. وكانت جيوشه في تقدمها تحصد المحاصيل، وتحرق الحقول، وتخطف قطعان الماشية، وتدمر القرى، وتسد المنافذ والملاجئ في وجه المجاهدين والسكان، وتقضي بذلك على الأخضر واليابس»[١٥٧].

وبدأ رجاله يطبقون سياسة الأرض المحروقة التي تتلخص في ثلاث كلمات (دمر . . احرق . . انهب)، ويتمتعون بصيد الرجال وقطع الرؤوس التي كانوا يأخذون جائزة عن كل رأس منها، وبدأوا يتمتعون بالقتل الجماعي للنساء والأطفال والشيوخ والدواب، وقد لجأ هؤلاء مرة في إحدى القبائل إلى كهف واسع عميق، فأتى جنود بوجو لكي يسدوا فوهة الكهف، ويشعلوا فيه النيران فيموت كل من فيه خنقاً وحرقاً، وبدأت رسائلهم إلى ذويهم تسجل تلك المتعة، ومن بينها رسائل الجنرال سانت أرنو التي نشرت فيما بعد، وقد جاء فيها: [١٥٨]

« نحن في قلب الجبال . . . حيث نطلق القليل من الطلقات، ونحرق كل الدوائر وكل القرى وكل الأكواخ . . إن العدو يهرب أمامنا في كل اتجاه مصطحباً معه قطعانه . . . لقد أحرقنا ودمرنا كل شيء . . . آه من الحرب، كم من النساء والأطفال ممن

لجأوا إلى جبال الأطلس قد ماتوا فيها من البرد والشقاء . . إننا نخرب ونحرق وندمر المنازل والأشجار» . وكان بوجو قد وضع جائزة لكل من حمل إليه رأساً مقطوعاً أن يعطيه خمسة فرنكات ، وجرى تَذَمُّر بين الجنود فيما بعد ، ليس احتجاجاً على هذا السلوك الوحشي الذي يشجعون عليه ، ولكن مساومة في قدر المكافأة ، فطالبوا برفعها أو بجعلها مكافأة لقطع عضو أصغر كالأنف أو الأذن مع رصد المكافأة الأكبر للرأس !

وفي هذا المناخ يتمتع الجنود في رسائلهم بالحديث عن التفاصيل ، يقول أحدهم[١٥٩] : « قطعت رأسه ومعصمه الأيسر ، وجئت إلى المعسكر أحمل رأسه على رأس الحربة ومعصمه معلقاً بسوار البندقية . . تلك هي يا صديقي الشجاع الطريقة التي يجب أن نشن بها الحرب على العرب ، يجب قتل الرجال حتى سن الخامسة عشرة ، وسبي جميع النساء ، وخطف الأطفال ، وتفريغ المساكن منهم ، وترحيلهم إلى جزر الماركيز أو أي مكان آخر خارج الجزائر ، وبكلمة يجب سحق جميع الذين لا يركعون تحت أقدامنا كالكلاب» .

وبالرغم من هذه الضراوة الوحشية ، فإن الأمير قد صمد نحو سبع سنوات كاملة في وجه قوات تتفوق على قواته أضعافاً مضاعفة ، وواجه أساليب تخلو من كل ما تعارف عليه العالم المتحضر من المبادئ الإنسانية المتبعة في الحروب ، ومن أبسط حقوق المدنيين وأرواحهم وممتلكاتهم . وقد فقد الأمير خلال هذه السنوات نحو ٦٪ من أراضيه وكل قلاعه ومستودعاته ومعظم جيشه النظامي ، ومع ذلك فقد كان يناور ، ويقاوم ، ويبتكر خططاً جديدة لإطالة أمد المقاومة وإثبات تمسك الشعب الجزائري بأرضه وحقوقه ، فعندما ضيق الخناق عليه سنة ١٨٤٣م ، اضطر إلى الانتقال إلى الصحراء ، واتخذ عاصمة متنقلة من الخيام سماها «الزمالة» ، وكانت تضم نحو خمسين ألف نسمة بما فيها نساء وعائلات جنوده ، وظل يخفيها عن أعين أعدائه حتى اكتشفوها بمساعدة الخونة ، فحرقوها في غيابه ودمروا كل شيء فيها ،

وقتل القائد مبارك بن علال الذي كان بمثابة الذراع اليمنى للأمير عبدالقادر في نوفمبر سنة ١٨٤٣م[١٦٠] .

وكانت تلك بداية مرحلة قاسية من التشتت ومحاولات الأمير للبحث عن تحالفات جديدة سواء في الخارج مع المغرب، أو في الداخل من خلال ثورات بعض القبائل، ولكن الفرنسيين كانوا متربصين، فهاجموا المغرب، ومنعوا التحالف الجديد أن يستمر، وأصبح الأمير عبدالقادر مطارداً هناك ومتربصاً به هنا، ومع أنه أحرز انتصارات خاطفة خلال هذه المرحلة العصيبة، فقد وجد نفسه محاصراً هو وقلة قليلة من رفاقه من كل الاتجاهات، ولم يكن أمامه بد من الاستسلام.

وشاور عبدالقادر القلة المحيطة به، وشكرهم، وأقنعهم بأنه لا مناص من مفاوضة الفرنسيين على الاستسلام بشروط مرضية .

« وقد حددت ليلة ٢١ من ديسمبر سنة ١٨٤٧م للتوقيع على شروط التسليم، وفي مقدمتها أن يغادر الأمير وحاشيته البلاد إلى الإسكندرية أو مدينة «بورصة» للإقامة فيها، وكانت ليلة ممطرة شديدة العواصف، فأناب الأمير رجلين من خاصته، وحملهما خاتمه للتوقيع على الشروط في معسكر الفرنسيين، وما علم القائد برغبة الأمير في التسليم طبقاً لهذه الشروط حتى وافق فورًا، وكذلك تلقت الحكومة الفرنسية هذا النبأ بالاغتباط الشديد، واحتفلت به باريس وأهلها احتفالاً عظيماً لأنه وضع حداً للمتاعب التي عانتها فرنسا طيلة خمسة عشر عاماً»[١٦١] .

« وقد استقبل الأمير في معسكر الفرنسيين استقبالاً يليق بخصم شهم وبرئيس دولة محارب، وبقائد جيش شجاع، ثم جاء الدوق دومال بنفسه لقبول استسلام الأمير، وقبل منه فرسه السوداء التي كانت كل ما يملك وما يحب من حطام الدنيا »[١٦٢]

وإذا كانت صفحة الإمارة الرسمية قد انتهت، فإن صفحات العظمة في شخصية عبدالقادر ما تزال مفتوحة لكي تسطر عليها خمس وثلاثون سنة من الزمان، هي امتداد ما بقي من عمره، جوانب التميز في شخصية الأسير والعالم والشاعر والمتصوف، والنموذج الحضاري الذي تألق على امتداد هذه السنوات في فرنسا وتركيا وسوريا والحجاز، وخلف من الآثار والمواقف ما يعتز به تاريخ الشخصيات المتميزة.

٤ - مرحلة ما بعد الإمارة

إذا كان عبدالقادر قد تخلى عن الإمارة سنة ١٨٤٨م، فإن الإمارة لم تتخل عنه أبدًا، لا فيما بقي من سنوات عمره، ولا فيما سجل من مآثر تاريخه. فقد ظل في كتب التاريخ كما يقول الدكتور حسين مؤنس يعد « دون شك أول وأجل أبطال التحرير في تاريخ الإسلام الحديث »[١٦٣]، وظل على اتصال وثيق بملوك وأمراء ووزراء وأعيان عصره في مختلف أرجاء العالم، يتبادلون معه الرسائل أينما حل، ويخاطبونه بلقب الإمارة، وهو يجيبهم، ويحتفظ برسائله، ورسائلهم وثائق تاريخية تبين عظم مكانته لدى معاصريه.

وقد جمع ابنه السيد محمد بن عبدالقادر في كتابه « تحفة الزائر في مآثر الأمير عبدالقادر وأخبار الجزائر» نماذج من هذه الرسائل، مشيرًا إلى تعذر الإلمام بها جميعاً، وهو يقول [١٦٤] : « منذ خرج الأمير من بلاد فرنسا إلى بلاد الإسلام، كان يكاتب الملوك فَمَنْ دونهم من الوزراء والأمراء لداعي تهنئة، أو غرض لازم عرضي، أو تشكر على إحسان حصل، فتأتيه الأجوبة على حسب ما يكتبه، وكذلك كان الشأن مع العلماء والأدباء الأفاضل، ولما كان استيعاب ذلك متعذراً، اقتصرنا على البعض منه».

ودون دخول في مضامين هذه الرسائل التي تفتح مجالاً واسعاً للوقوف على أهم قضايا النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وعلى درجة التفتح والوعي التي كان

يمتلكها عبدالقادر، فإننا نستطيع فقط من خلال ألقاب الخطاب الرسمية التي كانت توجه إليه من مسئولين يختارون عادة عباراتهم بدقة، أن نتعرف إلى مكانته وملاءمة الإمارة له .

فالخديوي إسماعيل يفتتح رسالة إليه بعبارة: « جناب الأمير المحترم والملاذ المكرم الأمير عبدالقادر»، والباب العالي تتصدر مكاتباته عبارة: « إلى حضرة الأمير عبدالقادر بالشام»، ورئيس جمهورية فرنسا المارشال ماكماهون يكتب إليه سنة ١٨٧٧م: «أيها الأمير المعظم»، وشقيق إمبراطور روسيا يكتب إليه ردًا على تهنئته بالعام الجديد سنة ١٨٧٢ م: « أيها الأمير الماجد المعظم»، وسفير إنجلترا لدى الدولة العثمانية تتصدر رسالته إليه: « إلى مفخر الأماجد الكرام، ذي القدر والاحترام الأمير عبدالقادر»، وكذلك الشأن في كثير من الرسائل التي يتلقاها من زعماء العالم شرقاً وغرباً، مما يدل على مكانته الدولية الراسخة(١٦٥).

وإذا كان هذا هو حظه من الاحتفاء الرسمي به في عصره، فإنَّ حظه من الاحتفاء الشعبي به لم يكن أقلّ، فقد حظي بالإعجاب والتقدير في كل مكان حلّ به بعد مغادرته للجزائر، سواء في فرنسا التي حُمل إليها هو وحاشيته بعد التسليم، واستُبقي فيها على غير ما كانت تقضي شروط الاتفاق بحمله إلى الإسكندرية أو « بورصة»، أو في تركيا التي رحل إليها بعد إطلاق الفرنسيين لسراحه، وإن كانت درجة الحفاوة به أقل، أو في سوريا التي استقر بها بقية حياته، وكان له فيها حياة علمية واجتماعية وسياسية حافلة .

وجد عبدالقادر نفسه أسيرًا مكرّماً أو شبه أسير عقب مغادرته الجزائر، وعلى حين حُمل إلى فرنسا لاتخاذ بعض الترتيبات قبل نقله إلى مدينة إسلامية كما كان يقضي الاتفاق، فإن تغيير الحكومة في فرنسا بعد وصوله إليها بقليل جعل الحكومة الجديدة تتلكأ في تنفيذ شروط الاتفاق، وتتخوف من نقله إلى مدينة إسلامية لئلا يؤدي ذلك -

فيما يظنون - إلى إعادة تجميع الصفوف وحشد القوى مرة أخرى، وربما عودة عبدالقادر إلى الجزائر، ومن هنا فقد بدأت فترة مماطلة استمرت خمس سنوات، أظهر فيها عبدالقادر قدرًا كبيرًا من الكياسة والنبل وحسن استغلال الوقت في اكتساب المعرفة وإكسابها لمن حوله، وفي نفس الوقت إصراره على مبادئه، مما زاده احترامًا في عيون أعدائه.

بعد وصول عبدالقادر إلى ميناء طولون، فوجئ بنقله إلى حصن De Lamalgue دي لامالج، وعندما احتج أفهموه أنه « يلزم بعض الوقت لإجراء المراسلات الضرورية سواء مع الحكومة التركية إذا رغب في السفر إلى عكا، أو مع الحكومة المصرية إذا فضل التوجه إلى الإسكندرية، وعندئذ سيسمح له بمتابعة سفره إلى الوجهة المختارة »[١٦٦].

وبعد ذلك بدأت محاولة إقناعه بتناسي شروط الاتفاق والبقاء في فرنسا، مع إغرائه بالإقامة في قصر كبير وتوفير راتب مجز، ولكنه ثار في وجه من عرض عليه ذلك : « لو قدمت لي من قبل مليكك كامل ثروة فرنسا بالملايين والجواهر، ولو كان بالإمكان وضعها كلها في طرف برنسي هذا، لقذفت بها فورًا إلى البحر الذي يضرب أسوار سجني، ولا أعيد إليكم الوعد الذي أعطي إلي علناً، وسأحمله معي إلى قبري، إنني ضيفكم، اجعلوا مني سجيناً لكم إذا شئتم، ولكن العار والخزي سيحلان عليكم لا عليّ »[١٦٧].

وظل في هذه الحالة خمس سنوات نقل خلالها إلى « قصر امبواز»، وكان موضع احترام الفرنسيين الذين كانوا على اتصال به وحوار معه، حتى جاء نابليون الثالث إلى الحكم، فكان أن أعاد النظر في تعليق الاتفاق، وزار عبدالقادر في مقره، ودعاه إلى باريس، ثم رتب أمر سفره مع الدولة العثمانية للانتقال خارج فرنسا، وفي هذه الزيارة أبدى الإمبراطور للأمير احترامه الفائق قائلاً[١٦٨] : « إنكم جلبتم دقة نظري،

واستلزمتم محبتي بما اشتهرتم به من الخصال الحميدة والبسالة والشجاعة وجميع ما أبرزتموه من أنواع المدافعة عن وطنكم، ولا أنظر إليكم بنظرة أسير بل بضيف يحترم» .

وعلى المستوى الشعبي كان عبدالقادر يجد دائمًا الحفاوة والإعجاب والتكريم، وكان يستقبل عند دخوله المدن استقبال الأبطال الفاتحين، فعندما دعاه الإمبراطور إلى زيارة باريس « شاع الخبر في فرنسا، فهرع الناس إلى باريس من كل فج ليحضروا احتفال دخول الأمير إليها»، ويصف صاحب تحفة الزائر[١٦٩] ذلك المشهد حين يقول : « وفي اليوم الرابع عشر من المحرم سنة تسع وستين والسابع والعشرين من أكتوبر سنة اثنتين وخمسين، توجه الأمير إلى باريس، وكان يوم وصوله يوما مشهودًا بالاحتفال الذي أجرته دولة فرنسا لدخوله إلى عاصمتها . . وصار للأمير احتفال يستحقه مقامه السامي، واستقبلته الوزراء ورجال الحكومة، وغصت أزقة باريس على اتساعها بجماهير الناس، ولما شاهدوه استولى عليهم الطرب»، ثم ينقل عن أحد الكتاب الفرنسيين مقارنة بين استقبال باريس لعبد القادر واستقبالها للجنرال لاموريسيه الذي حارب عبدالقادر في الجزائر وانتصر عليه، وكيف أن ذلك الجنرال يمشي في طرقات باريس فلا يلتفت إليه أحد، في حين يدخلها الأمير « دخول الانتصار والأهالي جميعها تزدحم لمشاهدته» .

وما كان لباريس أن تستقبله بهذه الحفاوة، لو أنه هو نفسه قبل منذ سنوات قلائل ما عرض عليه من أن يتنازل عن شرط إقامته في بلد إسلامي، وقبوله قصرًا يمنح له في باريس وعيشة هانئة ترتب له، فكان تمسكه بمبادئه وإصراره عليها سبباً في ارتفاع قدره حتى في أعين أعدائه .

ولم تتوقف الحفاوة به عند باريس وحدها، وإنما امتدت إلى كل المدن الفرنسية التي مرَّ بها، فقد استقبل في مدينة ليون استقبالاً حافلاً، وأقيم له احتفال واستعراض عسكري، اشترك فيه نحو عشرين ألف جندي، ثم استقبلته المدينة « وكانت مزينة

بالمصابيح والأعلام بزينة كاملة، وذلك اليوم وليلته كان من المواسم المعدودة»، وكذلك كان الشأن في مرسيليا وفي جزيرة صقلية .

ولم تكن حفاوة استقباله في سوريا أقل من حفاوة وداعه في فرنسا، ويتضح ذلك من خلال تأهب الجماهير للقائه وهو في الطريق إلى دمشق[١٧٠] : «وفي منتصف الطريق، وأثناء صعوده جبل لبنان، فوجئ بسماع طلقات نارية تدل على أنه على مقربة منه تجري معركة حامية الوطيس، وفجأة شاهد المرتفعات والسفوح وقد امتلأت بمجموعات عديدة تطلق نيراناً غزيرة، ثم مجموعة من الفرسان بنظام دقيق ورائعة التجهيز تهرع لملاقاته . . . كان أهالي المتن والشوف في جبل لبنان قد تجمعوا ترحيبًا بمقدمه . . . احتفاء آخر ومن حجم آخر كان بانتظار عبدالقادر في دمشق، فقد خرج السكان جميعًا، رجالاً ونساء وأطفالاً للترحيب به على مشارف المدينة وعلى مدى أكثر من عدة كيلو مترات، كانت الطريق تعج بالناس من كلا الجانبين، أناس من مختلف المستويات، وقد ارتدوا لباس الأعياد ليمتعوا أنظارهم ببطل وحامي العروبة والإسلام الشهير . . . وكأنه فاتح منتصر يشق طريقه بصعوبة ويرد على التحيات التي تستقبله . . . ولم يدخل عربي إلى دمشق مطلقاً مهما كان فيستقبل استقبالاً كبيرًا، كما دخل عبدالقادر منذ احتفالات صلاح الدين» .

إن هذه الحفاوة الشعبية الكبيرة كانت تعبيرًا عفوياً عن اعتزاز الجماهير بالقيم العظيمة التي جسدها هذا الأمير، ومن اللافت للنظر أن تكون هذه الحفاوة لدى أعدائه وأوليائه على سواء، فقد جسد في نظر كل منهما مفهوم «الفارس النبيل»، وفروسيته هي التي جعلته يفترق عن خصم له مثل « بوجو» كان يسعى إلى الوصول إلى النصر بأي ثمن، فيتسلى بقطع الرؤوس، وصلم الآذان، وحرق الزروع، وإبادة الضعفاء في ملاجئهم، ومطاردة النساء والأطفال إلى أعالي الجبال حتى يتجمدوا من البرد، ومن أجل هذا فإنَّ الفرنسيين الذين أحرز لهم المارشال هذا النصر، لم يحتفوا به احتفاءهم بالأمير الذي حاصر جنودهم في تلمسان، والتف حول قواتهم في «المقطع»، وألجأ

الكثير من جنودهم إلى أن يموتوا في النهر غرقاً أو في مواجهة جنوده الشجعان، أو أن يولوا الأدبار عبر الشواطئ المتعرجة والمسارب الوعرة، ذلك لأنهم لم يأخذوا عليه أنه قتل أسيراً أو خان ميثاقاً أو غدر بوعد، ومن أجل هذا ظل في أعينهم شامخًا .

أما العرب والمسلمون فقد رأوا في الصفحة الأولى من جهاده أملاً يعيد إلى النفوس بعض الثقة في استعادة الأمة لمواقفها المشرقة، والطَرْق من خلال ذلك على أبواب عصر النهضة، والتيقظ من سبات قرون الضعف والاستكانة، ورأوا في صفحته الثانية أملاً في إمكانية تحقيق وجود للذات العربية الإسلامية مع تمسكها بقيمها وعدم التفريط فيها .

وقد أعطت هذه البيعة بالإمارة الشعبية لعبد القادر رصيدًا كبيرًا ارتكن إليه وهو يتخذ قرارات أخرى صعبة، ومواقف صلبة أهلته ليكون شخصية عالمية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بكل المقاييس، ولا شك أن من أشهرها موقفه المشرف من أزمة المسيحيين في سوريا سنة ١٨٦٠ م.

وكانت فتنة طائفية قد اشتعلت سنة ١٨٦٠م بين الدروز والمسيحيين بتشجيع من الأتراك، وبدأت في لبنان حيث وقع الكثير من الحرائق والمذابح، ثم بدأت بوادر انتقالها إلى دمشق حيث كان يقيم عبدالقادر، وقد التف حوله مجموعة كبيرة من مريديه وأتباعه من الجزائريين والشوام، وقد حاول عبدالقادر في البداية أن يوقف حدوث الفتنة بأي ثمن، فأرسل إلى بعض شيوخ الدروز ونصحهم وحذرهم من إشعال نار الفتنة « وتكلم معهم بما أثر فيهم، وجعلهم يذعنون لنصائحه وواعدوه بأنهم لا يحركون ساكنًا في دمشق ولا يثيرون فتنة »[١٧١] ، لكن سوء تصرف الأتراك أو تحريضهم جعل الفتنة تشتعل بالرغم من ذلك في دمشق، فاتجهت جموع مثارة إلى حي النصارى، فأشعلت النار فيه، ومارست العدوان على أهله، وهنا انطلق عبدالقادر بنفسه، وقاد أتباعه، وطاردوا مثيري الفتنة، ودخلوا البيوت وسط دخان الحرائق

فأنقذوا سكانها من النصارى، وجمعهم عبدالقادر في داره وفي الدور المجاورة له وفي قلعة الوادي، وقد بلغ عددهم نحو خمسة عشر ألفاً، وسهر على حراستهم بنفسه هو ورجاله، ورد محاولات التحرش بهم، « واستمرت الفتنة قائمة ونارها موقدة أربعة عشر يوماً، كل ذلك والأمير مشتغل بكل الوسائل ليتوصل إلى إطفائها، باذلاً جهده في حسم أسبابها، ولم يدخل إلى بيته في أيامها بل كان يجلس على سجادة في دهليزه، لا يهجع من الليل إلا قليلاً »[١٧٢].

يقول جرجي زيدان في وصف بعض مواقف الأمير من هذه الأحداث : « ولما قامت الثورة ضد المسيحيين في دمشق ١٨٦٠م، كان الأمير عبدالقادر في مقدمة العاملين على إخمادها، بعد أن فشلت محاولاته العديدة لمنع وقوعها، فبذل قصارى جهده في كف الأذى عن المسيحيين، وما علم باندلاع نار الثورة في اليوم التاسع من يوليو في تلك السنة، حتى جمع كل من كانوا في دمشق من المغاربة وفرقهم في مختلف أنحائها لإنقاذ من يستطيعون إنقاذه من المسيحيين، ونقلهم إلى داره ليكونوا في حمايته، ولما امتلأت هذه الديار باللاجئين، أخلى الدور المجاورة لها لاستقبال بقية اللائذين به وفي مقدمتهم قناصل الدول الأجنبية، وكان ينفق عليهم بسخاء، وعضده في ذلك كثير من الفضلاء وفي مقدمتهم العالمان الجليلان : محمود حمزة وأخوه أسعد، وقد اشتركا مع الأمير ورجاله في صد الهجوم الذي قام به الأكراد في اليوم الثالث للقبض على أولئك اللاجئين . . وعندما علم الأمير بأن جموعاً من الدروز في طريقهم إلى قلعة المدينة للفتك بمن لجأ إليها من المسيحيين، سارع إلى نجدتهم، وتمكن من ردّ تلك الجموع الزاحفة على أعقابها بعد أن هددها بإطلاق الرصاص . . وظل الأمير طوال أيام الثورة متأهباً لإنقاذ المسيحيين، ورد العدوان عنهم، وإيواء اللاجئين منهم وحمايتهم، وإسعاف الجرحى، وتعزية الأرامل واليتامى، وكان يقضي أكثر الليل ساهراً وبندقيته في يده للدفاع عمن في حماه »[١٧٣] .

وهذا الموقف النبيل من قائد إسلامي بارز، حارب من قبل باسم الإسلام ونصرته في الجزائر، وهو يعتز بنسبته إلى الأسرة الهاشمية، ويعد من كبار علماء المسلمين ومتصوفيهم، ثم يأخذ بزمام المبادرة والدفاع عن المسيحيين حتى يخاطر في ذلك بنفسه لكي ينقذ منهم هذا الجمع الكبير، وينقذ معه سمعة الإسلام ممن أرادوا باسم التعصب والجهل أن يلوثوها، هذا الموقف ترك صدى واسعاً في جميع أرجاء العالم، وانهالت الرسائل والأوسمة والنياشين على الأمير عبدالقادر من كل الملوك والأمراء وزعماء الجمعيات والمؤسسات في أرجاء العالم المسيحي[١٧٤]، وفي هذا المجال تلقى رسالة شكر وتأييد من إمبراطور فرنسا، ونيشان صليب النسر الأحمر من الطبقة الأولى من ملك بروسيا، ووسام النسر الأبيض لأعظم الفرسان من قيصر روسيا، ونيشان الخيولية والفروسية من ملك إيطاليا، والنيشان الأكبر من الدرجة الأولى من ملك اليونان، وبندقية بفوهتين مطعمة بالذهب من ملكة بريطانيا، ومسدسين مطعمين بالذهب من أمريكا، ونجمة الجمعية الماسونية الفرنسية، ولم يقف الشكر والتأييد عند زعماء العالم المسيحي، بل امتد إلى زعماء العالم الإسلامي الذين أسعدهم موقف عبدالقادر الذي يجسد سماحة الإسلام، ويلفت النظر من بين هذه الرسائل رسالة تلقاها من المجاهد القوقازي الكبير «شامل الداغستاني» الذي كان يشارك عبدالقادر هو ومحمد علي لقب «الزعيم الأكبر» في القرن التاسع عشر، وكانت هنالك مراسلات بين الأمير والزعيم الشيشاني الذي كان وقتها أسيرًا ومتحفظاً عليه لدى قيصر روسيا، وقد كتب إلى مَنْ «أطفأ نار الفتنة قبل الهيجان، واستأصل شجرة العدوان، رأسها كأنه رأس شيطان»، وجاء في رسالته: «لقد قرع سمعي ما تمجه السماع، وتنفر عنه الطباع، من أنه وقع هناك بين المعاهدين والمسلمين ما لا ينبغي وقوعه من أهل الإسلام. وقد تعجبت كيف عمي من أراد الخوض في تلك الفتنة العظيمة من الولاة، عن حديث رسول الله ﷺ: «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب

نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة . . ثم لما سمعت أنك خفضت جناح الرحمة والشفقة، وضربت على يد من تعدى حدود الله تعالى . . . رضيت عنك والله تعالى يرضيك لأنك أحييت ما قال الرسول العظيم »[١٧٥] .

وقد تتابعت القصائد من علماء العصر وأدبائه في الثناء على موقف الأمير عبدالقادر النبيل، ومن هؤلاء الشيخ إبراهيم الأحدب نائب رئيس المحكمة الشرعية في بيروت الذي كان يشبهه بشمس الغرب التي عمت أضواؤها في الشرق :

شمس من الغرب استنار بها الورى

والشرق منه عمَّه الأضواءُ

آيات موسى أظهرت آياتِهِ

منه استبان لنا اليد البيضاءُ

والسيد أمين الجندي، والشاعر سليمان صولة، والشاعر نقولا النقاش، والأديب إسكندر آغا الذي كتب كتاباً عن الفتنة وجهود الأمير في إخمادها سماه « نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان»، والشاعر رزق الله حسون الذي أهدى إلى الأمير ديوانه «النفثات» وغيرهم من الشعراء والكتاب والصحفيين في الصحافة العربية أو الأجنبية ممن أشادوا بموقف عبدالقادر النبيل .

إن هذا الموقف الذي يمثل قمة تألق « الإمارة الشعبية» عند عبدالقادر، كاد أن يدفعه مع عوامل أخرى، إلى الدخول مرة أخرى إلى مجال «الإمارة الرسمية» بل التورط أحيانًا في مشاكلها، ففي أعقاب انهزام الدولة العثمانية أمام روسيا وإحاطة الخطر بالقسطنطينية التي كادت تقع في أيديهم، اجتمع نخبة من زعماء البلاد الشامية، وبحثوا في مصير سورية، وعقدوا مؤتمر دمشق السري للنظر في استقلال سورية، وفصلها عن جسم الدولة العثمانية[١٧٦] .

وقد أقر المؤتمرون اختيار الأمير عبدالقادر أميرًا على سورية، انطلاقاً من مزاياه العديدة، وسمعته الدولية، وتجربته في إنشاء الدولة الحديثة بالجزائر، «وكان رأي الأمير عندما علم بالأمر أن يظل الارتباط الروحي بين البلاد الشامية والخلافة العثمانية، بمعنى أن يبقى الخليفة العثماني خليفة على البلاد الشامية، وأن تتم البيعة الأولى للأمير من أهل البلاد جميعًا، فوافقه على ذلك أكثر المجتمعين»[١٧٧] وقد تلقى الأمير عبدالقادر رسائل من بعض الزعماء السوريين واللبنانيين تؤيد فكرة الترشيح، ومنهم الزعيم اللبناني يوسف كرم الذي أرسل إليه من روما رسالة تأييد ومبايعة، لكن الظروف الدولية، حالت دون أن يتم ذلك الأمر، فقد تماسكت الدولة العثمانية، وتولى السلطان عبدالحميد سنة ١٨٧٦م، وتأخر حل «المسألة الشرقية» فتجمد المشروع الذي كان مثاراً.

أما المرة الثانية التي لوحت فيها الإمارة الرسمية لعبد القادر بيديها فقد كادت تورطه في فخ ينصبه المستعمرون لضرب العرب ببعضهم، وقد حدث هذا من خلال فكرة فرديناند دي ليسبس صاحب مشروع قناة السويس، وكان صديقاً لعبدالقادر، وتتلخص فكرته في أنه كان يريد أن يقتطع من أرض مصر قطعة حول قناة السويس يقيم فيها مملكة خاصة، وكان يمهد لكي يكون عبدالقادر ملكاً عليها، وقد بدأت الخطوات بأن أهدت شركة قناة السويس له قطعة أرض كبيرة في منطقة البلاح بجوار بورسعيد «ورشحه دي ليسبس ليكون أميرًا على مملكة قناة السويس التي تسعى الشركة من أجل فصلها عن باقي تراب مصر»[١٧٨].

وعندما جاء الأمير عبدالقادر لتسلم الأرض رفض الخديوي إسماعيل، لأن مصر ليست هي التي أهدتها، وشركة قناة السويس لا تتحكم في أرض مصر، وقد قال إسماعيل: «إن القناة هي التي لمصر وليست مصر هي التي للقناة» وقد حاول ديليسبس دفع الأمير عبدالقادر إلى التمسك بالأرض، ولكن عبدالقادر، كما يقول ابنه محمد في تحفة الزائر، أبان لهم أنه لا يريد وقوع الشحناء بينهم وبين إسماعيل باشا بسببه»[١٧٩].

ويقول الدكتور يحيى بوعزيز في التعليق على ذلك الموقف : « السؤال الذي يفرض نفسه هنا : كيف سمح الأمير عبدالقادر لنفسه أن يكون «آلة» في يد شركة قناة السويس ، و« عوناً» لها تنفذ بواسطته مشاريعها الاستعمارية ، وتحطم به وحدة مصر الترابية . إن هذا السؤال سيبقى مطروحًا ما دام لم تكشف وثائق أخرى تبطله»[١٨٠] .

ويبقى أن ذلك أهون الضرر ، وبعض الشرر الذي تصيب الإمارة به من يقترب من نارها . غير أن مرحلة ما بعد الإمارة لم تكن مزدحمة فقط بمظاهر الإمارة الشعبية أو الرسمية اقتراباً أو ابتعادًا ، ولكنها مرحلة أبرزت مواهب أخرى للأمير عبدالقادر كانت موجودة بلا شك في المراحل السابقة ، ولكن جانباً كبيرًا منها كان متوارياً خلف الشواغل العملية والتحديات التي كانت تتطلبها فترة الإمارة والجهاد ، ومن أبرز هذه المواهب الشعر والعلم اللذان كانا من المكونات الرئيسية لعبد القادر ، واللذان ربما مثلا قبل الإمارة ملامح الطموح الرئيسية له ، ولكنهما صارا أقل تجسداً في مرحلة شواغلها ، وأصبحا أكثر حرية بعد أن خفت همومها . تحرك الشاعر في أفق الإخوانيات الصافية ، والمناجاة الروحية الخالصة . ووصف الطبيعة أحياناً ، وخفّت منه كثيرًا حدة المماحكات البديعية وألغاز النحاة والفقهاء ، وأصبح الشيخ وهو يرد شعرًا على أصدقائه من العراقيين والشوام من أمثال مصطفى شلبي البغدادي ، وأبي النصر الطرابلسي ، يظهر ألوان التظرف العراقية والشامية في مثل قوله[١٨١] :

بديعة الحسن بالأضحى تُهنّيني
تزهو بحسنٍ علا من غير تزيينِ
تميس كالغصن إذ مرّ الشمال بِهِ
أو شارب ثملٍ ، من خمر دارينِ
تراه نشوانَ إذ دبّ الشمول بِهِ
يميل مِنْ طرب ميل الرياحينِ

هيـفـاء يبـدو لنا مِنْ وجـهـهـا قـمـرٌ
مِنْ سُـحْب فـاحـمـهـا ، بانتْ بتلوينِ
ترمي بالحـاظهـا عن قـوس حـاجـبـهـا
تُصـيـبني ثمّ تَسـبـيني وتكويني
وقـد بدتْ لي - طلوع الشـمس - مـسـفـرةً
فطال ترداد عـيـني بين شـمـسينِ
ولستُ ادري أَسُكْري من نوافـجـهـا
ام تلكَ انفـاس احـبـابي تُحَـيِّـيني

ونحن هنا بالتأكيد أمام نفس شعري جيد منساب، يختلف في الدرجة الفنية عما يتردد في قصائد المراحل السابقة .

وإذا كان جزء من الجمال الشعري في المقطوعة السابقة يكمن في أن كلمات التحية فيها قد استعارت من الطبيعة مفرداتها، فجعلت التحية تزهو بحسنها الذي لا يحتاج إلى تزيين، فهي كالغصن الذي تلاعبه ريح الشمال، فيهتز ثملاً نشوان يميل طرباً، وإذا كانت الكلمة الجميلة قد استعارت ثوب الطبيعة لتبدو متألقة تفوح بالحياة والحيوية، فإن الطبيعة نفسها عندما تكون محور التعبير والوصف، تأخذ بنا خطوات في مدارج الجمال الشعري، كما هو الشأن في هذه المقطوعة التي كتبها عبدالقادر في وصف بستان له في قرية «دُمَّر» من مصايف دمشق[١٨٢] :

عُجْ بي فـديـتُكَ في اباطح دُمَّـرِ
ذات الـريـاض الـزاهـرات الـنُّضَّـرِ
ذات الميـاه الجـاريات على الصَّـفـا
فكانَّهـا مِنْ مـاء نَهْـر الكوثَرِ
ذات الجـداول كـالأراقم جَـريُهـا
سـبـحـانه من خـالق ومُـصَـوِرِ

والطيــــرُ في أدواحــــهـــا مُـــتــــرنِّمٌ
برخـــيم صــوتٍ ، فـــاق نَغْــمـــة مِــزْهَـر
مَـــغْنى به النسّـــاك ، يزهو حـــالهـــا
مـــــــا بَـينَ اذْكـــــــار وبـينَ تَـفـكّـرِ
مـــا شــــئتَ أنْ تلقى بـهـــا من ناسكٍ
أو فــــــاتكٍ في فَــــتْكه مُـــــتطوّرِ
أين الرُصـــافـــةُ والســـدير وشـــعب بوانٍ
إذا انصــــفــــتَــــهـــا مِنْ دُمَّــــرِ؟

إن مثل هذا النفس الشعري الجيد يدل على أن قريحة الأمير الشعرية كانت أكثر تفاعلاً مع الطبيعة المتفتحة منها مع الآفاق المحاصرة والمحدودة مثل آفاق الأسر التي كانت دافعـاً من قبل لأجمل قصائد الأميـر أبي فـراس ، على حين أنهـا لا تُثيـر المشـاعـر والتجليات نفسها عند الأمير عبدالقادر الذي تبدو قصائده في الأسر أقرب إلى تجريب المهارات اللغوية والصور المألوفة في الشعر العربي منها إلى عكس المعاناة الخاصة ، ولعل بعض السبب في ذلك يكمن في أن الأميـر ، كـان أقـرب إلى الضيـوف منه إلى الأسرى ، كما عبر عن ذلك الإمبراطور نابليون في لقائه معه ، ومن هنا فإن قصيدته التي أعطاها محقق الديوان ، عنوان «عذاب الأسر»[١٨٣]، لا تبدو كذلك من الناحية الفنية ، وإنما يشغلها مسألة الطيف والبحث عنه لكي يجيء في المنام ويترصد الرقباء حتى يناموا ، ويكون الذي يمنع الوصل قد غفا ، فيتمكن الطيف من الزيارة ، إلى غير ذلك من الصور المألوفة في مطالع قصائد العشاق ، والتي تفقد في الواقع حرارتها من كثرة تكرارها :

مــــــاذا عـلـى ســــــاداتنـا أهـل الـوفـــــا
لـو أرسلـوا طيــــر الـزيـارة في خـــــفـــــا

يتـــرصّـــد الرقـــبـــاء حـــتى يَغـــفلوا

ويكون مـــانع وصلنا ليـــلاً غـــفـــا

فـــإذا تمكنتِ الزيارة خِـــفْـــيـــةً

ياتي مـــواعـــد وصلنا مُـــتلطِّفـــا

وحتى عندما يخلص الشاعر من مسألة الطيف، بعد أن أطال فيها، وينتقل إلى ذكر الأماكن التي يحن إليها، والتي يرد على الذهن أول ما يرد في حالة الأسير أنها الأماكن التي ولد فيها، ونما، وكبر، وأحب، وجاهد، وأُقصي عنها، وكلُّها في الجزائر، نجده ينصرف عنها إلى ذكر الأماكن العامة التي ترد في الأشعار الدينية مجسدة الشوق إلى الحج مثل «حاجر» و «سلع» و «العقيق» و «طيبة».

ولا شك أننا هنا أمام مستوى شعري يختلف اختلافاً كبيراً عن قصائد الطبيعة التي أشرنا إليها من قبل.

لكن النفس الشعري يعود مرة أخرى مع قصائد المناجاة الدينية التي تتشكل أحياناً في خلوها من التكلف وسذاجتها، وهي تعكس نفساً صافية بسيطة، تكتسب القوة والعزة من خلال إعلان الضعف والمذلة(١٨٤):

يا ســـيّـــدي يا رســـولَ الله يا سندي

ويا رجـــائي ويا حـــصني ويا مـــددي

ويا ذخـــيـــرة فـــقـــري، يا عـــيـــاذي، يا

غـــوثي ويا عُـــدَّتي للخطب والنُّكدِ

يا كـــهف ذلّي، ويا حـــامي الذمـــار، ويا

شـــفـــيـــعنا في غـــدٍ، ارجـــوكَ، يا سندي

لا علم عندي أُرجّـــيـــه ولا عـــمـــلٌ

امـــام نجـــوايَ، من هديٍ، ومن رَشـــدِ

أبـغي رضـــــاك ، ولا شـيء أُقـــــدِّمُــــهُ

ســوى افــتــقـاري وذلّـي ، واصـفـرار يدي

لكن هذه النغمة الدينية البسيطة ، تتحول أحيانًا إلى نغمة صوفية مركبة يبحر من خلالها الشاعر في بحار المتصوفين ، لابسًا مُسوحهم ، ومستخدماً رموزهم المألوفة ، وأبرزها رمز الحب الذي أصّله من قبل الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، الذي كان الأمير مولعاً به ، ومقتفياً لخطاه ، وناسجاً على منواله ، حتى إنه هاجر من المغرب إلى المشرق مثله ، واستقر في دمشق . ودفن إلى جواره ، في سفح جبل قاسيون ، وإذا كان ابن عربي قد أصّل من خلال «ترجمان الأشواق» رموز الغزل الصوفية ، فإن عبدالقادر قد أضاف إلى أشواقها بعض الأنّات(١٨٥) :

أوقـــــات وصلكمُ عـــيـــدٌ وافـــراحُ

يــا مَــنْ هُــمُ الـرُّوح لـي، والـرَّوْح، والـرَّاحُ

يا مَنْ إذا اكـــتــحلتْ عـــيني بطلعــتـــهمْ

وَحــقَّــقَـتْ في مُــحــيّــا الـحــسن ، ترتـاحُ-

فـــــمـــــا نظرتُ إلـى شـيء ، بـدا أبـداً

إلا وأحْــــبــــابُ قلبي دونَه لاحـــوا

نـظرتُ حُــسْنَ الذي لا شَيء يُشْــبـــهُــهُ

فـــمـــا يَروق لقلبي بَعْـــدُ مُـــلاَّحُ

غــــرقتُ في حُـــبِّـــهمْ دَهراً أَلَمْ تَـرَنِي

في بِحــرهمْ سُــفنٌ – حــقّــاً – ومَــلاَّحُ

مــاذا على مَنْ رأى يومًــا جَـــمــالهمُ

أَنْ لَيْسَ تبـــدو له شـــمسٌ وإصـــبــاح

لو كنتُ أَعْـــجب من شَيء لأعْـــجـــبني

صــبــرُ المحــبّين مــا نَاحــوا ومــا باحــوا

اودُّ طولَ الليالي لو خلوْتُ بِهِمْ
وَقَدْ أُديرتْ اباريقٌ واقداحُ
يَروعني الصبح إنْ لاحتْ طلائعهُ
يا ليته لم يكُنْ ضوءٌ وإصباحُ
ليلي بدا مُشرقاً مِنْ حُسن طلعتهِمْ
وكلُّ ذا الدهر انوارٌ وافراحُ

وإذا كان نَفَس القصيدة الغزلي الصوفي يُذكّر بطريقة ابن عربي وغزلياته الصوفية، فإن خاتمة القصيدة وحديثها عن الصبح الذي يُروع العاشقين، لأنه يؤذن بانتهاء ليل الوصال، يُذكّر بما كان يشيع في شعر أبي فراس، من الظاهرة التي أُطلق عليها «الفجريات» أو الصبحيات، والتي تتحدث عن نَفْس الظاهرة في قصيدة الغزل غير الصوفي، وقد شاعت في شعر أبي فراس لدرجة جعلت بعض الدارسين من المستشرقين يعتقدون أنه متأثر فيها بظاهرة مماثلة لدى شعراء الروم يطلق عليها ALBA .

ولم يكن ابن عربي وحده هو الذي تسربت أنفاسه خلال قصائد عبدالقادر الصوفية، فقد تسربت كذلك أنفاس «سلطان العاشقين» ابن الفارض الذى اشتهر من بين ما اشتهر به بخمرياته الصوفية التي تكاد تلتقي رموزها مع خمريات أبي نواس، كما تلتقي رموز الغزل الصوفية بالرموز المتداولة في قصائد كبار العشاق.

وقد تجلى امتزاج هذه الرموز لدى عبد القادر في مُطوّلته الرائية التي بلغت زهاء مائةٍ وعشرين بيتاً والتي نظمها عبدالقادر خلال تجربة الخلوة المكية التي جاور خلالها عامًا كاملاً في الكعبة الشريفة، أعقبه بنصف عام في الحرم النبوي، وتتلمذ خلال هذه الفترة على شيوخ التصوف وأعاد من شرب طرائقهم، وقد جاءت القصيدة وفيها مذاق هذا «الانجذاب» إلى آفاق الواصلين، والتحليق في سماواتهم، واستخدام مفرداتهم، ومن لوحاته الخمرية في هذه القصيدة[١٨٦] قوله :

ويشرب كاساً صرفةً، مِنْ مدامةٍ
فيا حبّذا كاس ويا حبّذا خمرُ

مُـعَـتَّـقـة مِنْ قـبل كـسـرى مـصـونةٌ
ومـا ضـمَّـهـا دنٌ ولا نَالَـهـا عَـصْـرُ
ولا شـانَـهـا زِقٌ ولا سـار سـائرٌ
بأجـمـالـهـا ، كـلاً ولا نـالـهـا تَجْـرُ
فلو نظر الأَمْـلاك خـتم إنـائـهـا
تخلّوْا عن الأمَـلاْك طوعـاً ولا قـهـرُ
ولو شـمَّت الأعـلام في الدرس ريحـهـا
لما طاش عن صـوب الصـواب لهـا فِكرُ
فـيـا بعـدهم عنهـا ، ويا بئس مـا رضـوا
فـقـد صـدُّهم قـصـدٌ وسـيُّـرهـم وزرُ
فـلا عـالمٌ إلا خـبـيـرٌ بشـربهـا
ولا جـاهلٌ إلا جـهـول بـهـا غِـرُّ
ولا خـسـر في الدنيـا ، ولا هو خـاسـرٌ
سـوى والهٍ والكأسُ من كـفِّـهـا صـفـرُ
إذا زمـزم الحـادي بذكـر صِـفـاتـهـا
وصـرَّح مـا كنًّى ، ونـادى: نـاى الصـبـرُ
وقـال : « اسـقني خـمـراً وقُل لي هيَ الخـمـرُ
ولا تسـقني سِـرّاً إذا أمْكنَ الجـهـرُ »
«وَصـرِّحْ بمن تَهْـوى ودعْني من الكُنَى
فـلا خـيـرَ في اللذاتِ من دونهـا سِـتْـرُ»
ترى سـائقـيـهـا ، كـيف هـامَتْ عـقـولـهم
ونـازَلـهـم بَسْط وخـامـرهَم سُكرُ
وتـاهـوا فلـم يـدروا من التـيـه مَنْ هُمُ
وشـمـسُ الضـحى مِنْ تحت أقـدامـهم عَـفْـرُ

وقــالوا فــمن يُرْجى من الكون غــيــرُنا
فنحنُ ملوك الأَرض لا البــيضُ والحــمــرُ
تميــدُ بهْم كــاسٌ بهــا قَــدْ تولّهــوا
فليس لهم عُــــرْفٌ وليس لهم نُكْرُ
ويُسكرهمْ طيب النســيم إذا ســرى
تظنُّ بهمْ ســحــراً ، ولَيْسَ بهم سِحْــرُ
وتبكيــهم وُرق الحــمــائم في الدُّجى
إذا مــا بكتْ مَنْ لَيْسَ يُدرى لهــا وَكْــرُ
وتَســبــيــهمُ غــزلان رامــةَ إنْ بدتْ
وأحــداقُــهــا بيضٌ وقــامــاتهــا سُــمْــرُ
وفي شــمّــهــا حــقًــا بذلنا نفــوسَنا
فــهـــان علينا كلُّ شيء له قَــدْرُ

إن مثل هذا الشعر، يستطيع أن يستقر مطمئناً في صفحات الشعر الصوفي الجيدة، بل أن يُنسب إلى الشعر الجيد بصفة عامة، وهو لا يحمل فقط دلالة على ثقافة صاحبه الصوفية الواسعة، ومعرفته بطرائق التعبير في هذه المجالات الوعرة، وإنما يحمل بالإضافة إلى ذلك دلالةً على عمق تجربته السلوكية، وانعكاسِ هذه التجربة على النفس إرهافاً للحس وسمواً بالمشاعر، وهو ما يفسر بدوره جانباً من ذلك النمط الراقي في السلوك، الذي كان يؤثر عن الأمير عبدالقادر مع كل من يعرفه، حتى ولو خالفه في الرأي والمعتقد .

إن مظاهر ثراء الشخصية عند عبدالقادر تتكامل وتتداخل، ومن هنا يتكامل الشعر والسلوك، ويتكامل التصوف العملي الذي يتشكل في الخلوات تصوراً وتعوداً، وفي العبادات والمعاملات نقاء وصفاء، مع التصوف النظري الذي يتشكل من دراسة آثار السابقين واستيعابها، وتدريسها والتأليف حولها، وقد كانت تجربة عبدالقادر

وآثاره في كل هذه الآفاق واضحة وناصعة، مما لا يتسع المجال لتفصيله هنا، ومما تشهد به حلقات العلم التي كان يلتقي فيها حوله المئات من الطلاب والدارسين، سواء في المسجد الأموي أو المدرسة الأشرفية أو في داره في دمشق، ليقرأوا عليه علوم الحديث والفقه والفلسفة وغيرها من فروع المعرفة .

وتشهد به كذلك المؤلفات العميقة التي تركها مثل كتابه « المواقف» الذي كان حصيلة ثرية لحواراته وتأملاته، والذي ضم مائتين واثنين وسبعين موقفاً صوفياً، تحاور فيه مع ثلاثة من كبار علماء عصره: الشيخ عبدالرازق البيطار، والشيخ محمد الخان والشيخ محمد الطنطاوي، وقد جاء في ثلاثة مجلدات، ويحتوي على نحو ألف وخمسمائة صفحة، وتذكر طريقته بالفتوحات المكية لابن عربي، الذي كان موضع إعجاب الأمير[١٨٧] .

ومثل كتاب « ذكرى العاقل وتنبيه الغافل» وهو بحث قدمه الأمير عبدالقادر[١٨٨] عندما اختير عضواً مراسلاً لمجمع الخالدين في باريز، فقدم هذا البحث أمامه على نسختين، إحداهما بالعربية، والأخرى مفرنسة بقلم ترجمان القنصلية في دمشق، وموضوع الرسالة في العقل المدرك والعلم وإثبات النبوة وفضل الكتابة والتأليف، والرسالة تعكس مجمل النظرة الثقافية التقليدية كما هي موجودة لدى الفلاسفة والمؤرخين العرب من أمثال ابن خلدون والطبري وابن سينا، وإن كان أسلوبها قد بدأ ينسلخ عن أسلوب العصور الوسطى المسجوع المتكلف، ويلجأ إلى الأسلوب المسترسل .

ومثل كتاب « المقراض الحاد لقطع لسان منتقصي دين الإسلام بالباطل والإلحاد» الذي جاءت كتابته نتيجة لبعض المحاورات التي كان يشارك فيها أثناء فترة الأسر في فرنسا، ومنها ما يشير إليه هو ويجعله سبباً دافعاً لتأليف الكتاب حين يقول[١٨٩] : « إني

في أيام ضيافتنا عند الدولة الفرنسوية، تكلم بعض القسيسين في الإسلام، وقال إن الغدر وعدم الوفاء فيه غير قبيح ولا منهي عنه» فدعاه ذلك بعد امتناع إلى أن يستجيب لرغبة العلماء في توضيح اللبس الذي يثار حول فهم بعض مبادئ الدين الحنيف .

إن مرحلة ما بعد الإمارة شكلت تتويجاً لعمر حافل بالعطاء والإخلاص والتفاني وتحقيق الجهاد بمعناه الواسع، الذي لا يتوقف عند الجهاد بالسلاح كما كان الشأن في مرحلة الإمارة، وهو ما يمكن أن يسمى بالجهاد الأصغر، قياساً على الجهاد الأكبر الذي تبدى في هذه المرحلة الأخيرة، وكان سلاحه العلم والحوار وضرب المثل ومحاربة الجمود والتقليد والدعوة إلى التسامح وتجسيد ملامح الشخصية العربية المسلمة، لا من خلال التعبيرات وترديد الموروثات فحسب، ولكن من خلال التمثل ومجابهة المواقف بروح شجاعة متفتحة، يتحقق معها معنى الفروسية في مراحل العمر المتأخرة كما تحقق من قبل في مراحل العلم المتقدمة، وإن اختلف المجال، ويتأكد معها، ليس فقط وحدة وتماسك الشخصية المتميزة للبطل المتميز مع اختلاف المراحل واتجاهات العطاء، وإنما يتأكد أيضًا إمكانية الحديث عن نمط من وحدة مفهوم الشخصية العربية الإسلامية التي تلتف حول مجموعة من القيم الرئيسية، وإن اختلفت تجليات وأشكال التعبير عن هذه القيم باختلاف الزمان والمكان والظروف المحيطة، كما كان الشأن بالنسبة إلى الشخصيتين المتميزتين اللتين اصطحبناهما خلال هذا الكتاب، أبي فراس الحمداني وعبدالقادر الجزائري، واللذين أثبتا معاً صلابة الجوهر الرئيسي لمنظومة القيم التي يصدران عنها، والتي تبرهن على قدرتها على صياغة الشخصية المتميزة في مجتمع الصحراء، أو في مجتمع المدينة، وفي مواجهة الأصدقاء، أو في مواجهة الأعداء، وفي فترة ما قبل العصور الوسطى، أو على مشارف العصر الحديث، وفي ميادين الشعر، أو العلم، أو الفروسية، أو الحرب .

****